

لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤

كتاب

الأخلاق

تأليف

أحمد أمين

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب في المدارس الثانوية ومدارس المعلمين الأولية

(حقوق الطبع محفوظة للجنة)

[الطبعة الثالثة]

دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م



24

الخلافة

حمد أمين

جمهورية مصر العربية
 وزارة المعارف
 مكتبة
 رقم ١٢٣٤٥٦٧٨٩١٠
 تاريخ ١٩٢٠

تقویت وزارة المعارف تدریس کذا الكتاب فی المدارس الثانوية ومدارس المعلمین الأولیة

71941-A130.

للمؤلف

(١) كتاب الأخلاق الكبير — وهو أوسع من هذا الكتاب مادة وأشمل موضوعا يقع في ٣٢٠ صفحة ، مطبوع بمطبعة دار الكتب المصرية (الطبعة الثالثة) ومجهد تجليدا ظريفا ، وثمانه ٢٠ قرشا .

(٢) كتاب ” مبادئ الفلسفة ” ألفه الأستاذ س . س . رابو پورث يشرح فيه قضايا الفلسفة وتاريخها في أسلوب سهل ، مع تجنب للمصطلحات والنظريات العميقة — وقد تُرجم الى العربية ترجمة صحيحة ودقيقة وطبع بمطبعة دار الكتب المصرية (الطبعة الثالثة) ، وثمانه ١٠ قروش .

(٣) فجر الاسلام (الجزء الأول) — وهو يشرح الحياة العقلية والثقافة الاسلامية في صدر الاسلام الى آخر الدولة الأموية ، ويقع في ٣٧٥ صفحة بالقطع الكبير ، وثمانه ٢٠ قرشا .

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله :

الغرض من هذا الكتاب أن يكون مرشدا للطلبة في حياتهم الأخلاقية ، يلفتهم الى نفوسهم ، ويبين لهم أهم نظريات الأخلاق ، ويوسع نظرهم فيما يعرض عليهم من الأعمال اليومية ، ويشحذ ارادتهم لتأدية الواجب واكتساب الفضيلة .

راعى فيه الجهة العملية أكثر مما راعى الجهة النظرية ، لأن التعمق في النظريات حظ الفلاسفة ، والعمل وفق ما تتطلبه الأخلاق واجب الناس جميعا ، والحياة الأخلاقية تعتمد على الروح الذى يبعث على العمل أكثر مما تعتمد على قواعد العلم .

وقد كنت ألفت كتابا في الأخلاق نشر مرات ، فلما وضعت الوزارة برنامجها الجديد للأخلاق في المدارس الثانوية عمدت الى كتابي هذا فصغته صياغة جديدة — بسطت موضوعاته حتى تناسب الطلبة في دورهم هذا ، وحذفت منه ما زاد عن حاجتهم ، وزدت فيه فصولا لم تكن من قبل .

والله المسئول أن ينفع به كما نفع بأصله ما

أحمد أمين

سبتمبر سنة ١٩٢٩

فهرس الكتاب

صفحة

الفصل الأول — علم الأخلاق — ماهيته — موضوعه —

مسائله — الأعمال الارادية وغير الارادية — التبعة

الأخلاقية ١

ماهية علم الأخلاق ١ ، موضوعه ومسائله والأعمال الارادية

وغير الارادية ٢ ، التبعة الأخلاقية ٦

الفصل الثاني — الضمير — الضمير والارادة — تربية الضمير ١٠

ماهية الضمير ١٠ ، اختلاف الضمير ١٢ ، الضمير والارادة ١٥ ،

تربية الضمير ١٦

الفصل الثالث — الحكم الأخلاقي — مقياسه — الرأي

الشخصي — العرف — الوجدان — العقل

والاستدلال — تربية الحكم الأخلاقي ١٨

معنى الحكم الأخلاقي ١٨ ، هل يصدر الحكم باعتبار الغرض أو النتيجة

١٩ ، مقياس الحكم الأخلاقي ٢٣ ، العرف ٢٣ ، الرأي

الشخصي ٢٦ ، الوجدان ٢٨ ، العقل والاستدلال ٢٩ ،

تربية الحكم الأخلاقي ٣٠

الفصل الرابع — مذاهب علم الأخلاق ونظرياته ... ٣٢

مذهب السعادة ٣٣ ، مذهب السعادة الشخصية ٣٦ ، مذهب

السعادة العامة أو مذهب المنفعة ٤١ ، مذهب اللقاة أو البصيرة

٤٨ ، نظرة عامة في هذه المذاهب ٥٥

الفصل الخامس — الخير والشر ... ٦١

الفصل السادس — علاقة الفرد بالمجتمع ... ٦٥

الفصل السابع — الحقوق والواجبات ... ٧٤

معنى الحق والواجب ٧٤ ، أساس الحق والواجب ٧٦ ، حق

الحياة ٧٧ ، حق الحرية ٧٨ ، حق الملك ٨٦ ، حق التربي ٨٨

الفصل الثامن — معنى الواجب — أهم الواجبات ... ٩١

معنى الواجب وأقسامه ٩١ ، التضحية لأداء الواجب ٩٥ ،

الواجبات على الإنسان لله ٩٩ ، واجب الإنسان نحو نفسه ١٠١ ،

واجب الإنسان نحو أسرته ١٠٩ ، واجب الإنسان نحو

وطنه ١١٢ ، واجب الإنسان نحو الإنسانية عامة ١١٨

الفصل التاسع — المثل الأعلى ... ١٢٣

معنى المثل الأعلى ١٢٣ ، اختلافه باختلاف الأشخاص ١٢٤ ،

مم يتكون ١٢٦ ، رقيه وانحطاطه ١٢٧

فهرس الكتاب (ز).

صفحة	
١٢٩	الفصل العاشر — الفضيلة
	معنى الفضيلة ١٢٩ ، اختلاف قيمتها باختلاف الأفراد والأمم
	١٣٠ ، أقسام الفضيلة ١٣٢ ، طرق غرس الفضائل ١٣٦
١٤٢	الفضائل تفصيلاً
١٤٢	الصدق
	معناه ١٤٢ ، أنواعه ١٤٥ ، هل يباح في أية حالة من الأحوال ١٤٦
١٥١	الشجاعة
	معناها ١٥١ ، الشجاعة الأدبية ١٥٤ ، علاج الجبن ١٥٩
١٦٢	العفة أو الاعتدال أو ضبط النفس
	معناها ١٦٢ ، الزهد وآراء الناس فيه ١٦٢ ، الإفراط
	في الشهوات ١٦٦ ، الاعتدال ١٦٦ ، أهم أنواع ضبط
	النفس ١٦٨ ، ضبط النفس عن الغضب ١٦٨ ، ضبط
	النفس عن التشاؤم ١٦٩ ، ضبط النفس عن الاسترسال
	في الشهوات ١٧١
١٧٣	العدل
	معناه ١٧٣ ، العدل بين الأفراد ١٧٣ ، العدل في المجتمع ١٧٦ ،
	العدل والمساواة ١٧٨ ، العدل والرحمة ١٨١ ، العدل
	والإحسان ١٨٣

صفحة

الاعتماد على النفس ١٨٥

معناه ١٨٥ ، كيف تربيته ١٨٨

الطاعة ١٩١

الانتفاع بالزمن ١٩٥

التعاون ٢٠١

التعاون بين الأفراد ٢٠١ ، التعاون بين الأمم ٢٠٥

خلاصة ٢٠٨

(تنبيه) وضعنا بعض الفقرات بين قوسين هكذا []

لما نطن أنه فوق مستوى الطلبة فإذا رآه المدرس كذلك كان له أن يتركه .

الفصل الأول

علم الأخلاق — ماهيته — موضوعه — مسأله —
الأعمال الارادية وغير الارادية — التبعة الأخلاقية

ماهية علم الأخلاق ومسأله — كنا يحكم على بعض
الأعمال بأنها خير، وعلى بعضها بأنها شر، فنقول : العدل خير،
والظلم شر، وأداء الدين الى صاحبه خير، وإنكار المدين ما عليه
شر، وهذا الحكم متداول بين الناس رفيعهم ووضيعهم، عالمهم
وجاهلهم، على لسان الفيلسوف في بحثه عن أعمال الإنسان،
وعلى ألسنة الصناع في صناعتهم، بل والأطفال في ألعابهم، فما معنى
الخير والشر؟ وبأي مقياس أقيس العمل فأحكم عليه بأنه خير
أو شر؟

كذلك نرى الناس يعملون أعمالا لغاية يطلبون تحقيقها،
والناس يختلفون اختلافا كبيرا في هذه الغايات التي ينشدونها،
فبعضهم يطلب المال، وآخر يطلب الجاه، وآخر يطلب العلم
وفريق يزهد في كل ذلك ويطلب رضا الله بالعمل الصالح،

ويأمل النعيم المقيم في الدار الآخرة، ولكن كثير من هذه الغايات التي يطلبونها ليست هي الغاية الأخيرة، فلو سألت إنسانا لم يعمل هذا العمل؟ لقال: إنه يعمل طمعا للمال، ولو سألته لم يطلب المال؟ لقال: إنه يطلبه لينبئ قصرا ويكون أسرة، ولو سألته في آماله وسألته لم يريد القصر والأسرة؟ لقال: إنه يرغب أن يكون في الحياة سعيدا — إذن — المال والقصر والأسرة ليست غايات أخيرة، إنما الغاية الأخيرة له أن يكون سعيدا — فهل للناس جميعا غاية أخيرة واحدة يطلبونها أو بعبارة أخرى ينبغي أن يطلبوها؟ وما هي؟

عن كل هذا يبحث علم الأخلاق .

← فهو علم يوضح معنى الخير والشر، ويبين ما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضا، ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصدها الناس في أعمالهم، وينير السبيل لعمل ما ينبغي .

موضوعه — يؤخذ مما ذكرنا أن علم الأخلاق يبحث عن أعمال الناس فيحكم عليها بالخير أو الشر، ولكن ليست كل الأعمال صالحة لأن يُحكم عليها هذا الحكم، فكثير من الأعمال لا يصح أن يقال: إنها خير ولا شر، وليبان ذلك نقول:

تصدر من الانسان أعمال غير ارادية كالتنفس ونبض القلب ورمش العين عند الانتقال فجأة من ظلمة الى نور، فهذه الأعمال تسمى (أعمالا غير ارادية)، وهى ليست من موضوع علم الأخلاق، فلا نحكم عليها بخير ولا شر، ولا يقال : إن الانسان خير لأن قلبه ينبض نبضا حسنا، أو معدته تهضم هضمًا جيدًا، كما لا يقال : إنه شرير لأن قلبه لا ينبض كما ينبغي، ومعدته لا تهضم هضمًا حسنا، لأنه لا دخل لارادة الانسان في ذلك، وكل إنسان يريد أن ينبض قلبه وتهضم معدته على أحسن وجه ولكن ارادته لا أثر لها في ذلك .

وتصدر من الإنسان أعمال بعد التفكير في نتائجها واردة عملها، كمن يرى أن بناء مستشفى في بلده ينفع قومه وينخفف مصائبهم فيتبرع بالمال لبنائه وإدارته، وكمن يُقدم على قتل عدوه فيفكر في وسائل ذلك ثم ينفذ ما عزم عليه، فهذه الأعمال تسمى «أعمالا إرادية» وهى موضوع علم الأخلاق، فيحكم عليها بأنها خير أو شر، وعلى فاعلها بأنه خير أو شرير .

وهناك نوع من الأعمال بين الاثنين، فله شبه بالأعمال الارادية وله شبه بالأعمال غير الارادية، فهل هو من موضوع علم الأخلاق؟ كما في الأمثلة الآتية :

(١) من الناس من يأتى أعمالا وهو نائم ، فلو أن أحدهم أشعل نارا بمنزله وهو في هذه الحالة ، أو أطفأ نارا كادت تحرق المنزل ، فهل هذا عمل إرادى يحكم عليه بأنه خير في الحالة الأولى وشر في الثانية ؟

(٢) قد يصاب إنسان بداء النسيان فيترك عملا كان يجب عليه عمله في وقته ، أو يخلف موعدا وعده .

(٣) قد يستغرق الفكر عمل ، كمن يشتغل بحل مسألة هندسية ، أو يقرأ في رواية لذيدة ، فيلهيه ذلك عن درس واجب أو عمل مفروض .

هذه الأعمال كلها — بالتأمل فيها — نرى أنها أعمال غير ارادية ، فليس النائم في المثال الأول قد تعمد إحراق المنزل وقدر نتائجه ، لذلك لا يُحكم على عمله هذا بأنه خير أو شر ، لأنه لا إرادة له ، ولا يُسأل عنه ، وإنما يسأل عنه ويحاسب عليه إذا كان يعلم أنه مصاب بهذا المرض وأنه يأتى أعمالا خطيرة وهو نائم ، ثم لم يحتط وقت صحوه وانتباهه لما قد يحصل عند نومه ، بأن يحول بين نفسه والنار وأدواتها ، فهو مسئول خلقيا عن عدم الاحتياط وقت الانتباه ، لأنه شئ إرادى ، كان في مكنته أن يحتاط له ثم

لم يفعل، وكذلك الشأن في الأمثلة التي ذكرناها ونحوها، فلو أنك نمت وتركت النار مشتعلة في موقد ثم طارت شرارة أحرقت المنزل لا يسمع لقولك: «إن هذه ليست خطيئتي ولست قادراً أن أمنع النار أن ترمى بالشرر وأنا نائم» اذ يقال لك: «إنك عالم أن مستناباً، وقد أردت النوم، وعالم أن النار مشتعلة، وكان في إمكانك أن تحتاط وقت انتباهك باطفائها، وعالم أنك ستكون في حالة عدم شعور، فكان ينبغي أن تستعد وقت شعورك لما قد يطرأ وقت عدم شعورك، وذلك باطفاء النار، فنحن إنما نحكم عليك بالخطأ والصواب بالنظر إلى عدم الاحتياط، وهو شيء إرادي» .

ومثل ذلك الإتيان بعمل مع الاعتذار بجهل النتائج التي تصدر عنه — وكن كان يعلم من نفسه أنه حاد الطبع غضوب، لا يضبط نفسه عند سماع كلمة تؤلمه، فيسب أو يضرب من غير شعور، فلو أنه غشى الجمعيات التي هي مظنة لإثارة غضبه وأتى بما يستنكر كان مسئولاً عن عمله، — لما ذكرناه — وكذلك الأعمال التي اعتيدت حتى صار صاحبها يأتيها من غير ارادة، فإنه يسأل عنها، لأن الاعتياد نتيجة عمل إرادي متكرر، فلا يعذر طالب بأنه إنما يدخن لأن التدخين أصبح عادة متمكنة منه، لأنه — على فرض

تمكنه كما يدعى — إنما انغمس في هذه العادة بعد أن دخن جملة مرّات وهو حرّ مختار مرید حتى صارت عادة، وهكذا .

والخلاصة : أن موضوع علم الأخلاق هي الأعمال التي صدرت من العامل عن عمد واختيار، يعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمل، وكذلك الأعمال التي صدرت لا عن إرادة ولكن كان يمكن تجنب وقوعها عند ما كان مریداً مختاراً، فهذان النوعان يحكم عليهما بالخير أو الشر — وأما ما يصدر لا عن إرادة وشعور، ولا يمكن تجنبه في حالة الاختيار، فليس من موضوع علم الأخلاق .

التَّبعَةُ الأخلاقية (المسئولية الأخلاقية) — مما تقدّم نفهم أن التبعية لا تكون إلا إذا وجدت الإرادة، فما لا دخل لإرادة الإنسان فيه لا يُسأل عنه، ولا يلام عليه، ولا يمدح أو يذم من أجله، فلا يمدح الشخص لطوله، ولا يذم لقصره، من الناحية الأخلاقية، ولا يقال : إنه خير لأنه جميل الوجه ولا شرير لأنه قبيح، لأن هذه الأشياء وأشباهها لا عمل لإرادة الإنسان فيها . وليس يلام الإنسان على سوء صحته، ولا يمدح على حسنها إلا بمقدار ماله من أعمال إرادية في ذلك، كسيره في حياته على نظام صحي أو إهماله ذلك .

كذلك لا يُسأل الانسان عما لم يمنح من ملكات عقلية أو فنية ، فالناس لم يخلقوا جميعا وعندهم استعداد بقدر واحد للرياضة أو للفنون الجميلة ، فمن لم يخلق رياضيا لا يكون مسئولا عن ضعفه الرياضي ، انما يكون مسئولا اذا كان عنده الاستعداد الكافي وكان ينقصه الميران. والحمد ثم لم يمرن ولم يجد وهكذا .

والطفل الرضيع اذا بكى وأسهر أمه طول الليل لا يسأل عن عمله لأنه لا ارادة له ، والصيدلى اذا أخطأ فأعطى الممرضة دواء غير المكتوب فى تذكرة الطبيب فناولته الممرضة المريض وهى جاهلة به فمات منه كان المسئول هو الصيدلى لا الممرضة ، لأنها لا إرادة لها فى ذلك ، والصيدلى هو المسئول لاهماله فى عمله .

فمتى وجدت الارادة وجدت المسئولية ، وما لم توجد الارادة فلا مسئولية ، فالأعمال التى ليس فى طاقة الانسان التحكم فيها والتى غلب فيها على نفسه لا يسأل عنها ، كأعمال المجنون والمغمى عليه ، وكذلك أعمال المكروه ، فمن أمسك بيد آخر واضطره لأرتكاب جريمة ولم يستطع المكروه بحال أن يقاومه لم يكن مسئولا ، انما المسئول من أكرهه على العمل .

وهنا كثيرا ما يعرض هذا السؤال وهو : هل ارادة الانسان حرة حتى يكون مسئولا عن عمله ؟ هذه المسألة من المسائل المشككة

التي طال فيها الجدل قديما وحديثا ، فيذهب بعض الباحثين الى أن الانسان مُجبر ليس حرّ الارادة : ذلك لأن إرادة الانسان تتأثر بشيئين : الوراثة والبيئة ، فهو يرث من أبويه ميولا خيرة وميولا شريرة ، وكذلك تؤثر فيه البيئة التي حوله من بيت ومدرسة وأصدقاء وكتب ونحو ذلك ، فمن نشأ من أبوين مجرمين ، وورث منهما الميل الى الاجرام ، وشبّ بين مجرمين وسمع أحاديثهم كان مجرما لا محالة ، ولم يكن حرّ الارادة فيما يفعل ، وليس في استطاعته إلا أن يكون مجرما ، وإذا أردت إصلاحه فأصلح البيئة التي يعيش فيها ، وأنقله من بيئته السيئة الى بيئة خيرة ، ولكن في هذا الرأي غلوا ، فإن الارادة — وإن كانت تتأثر بالوراثة والبيئة الى درجة كبيرة — فإنها لا تفقد حرّيتها ، وأوضح دليل على ذلك ما نشعر به في أنفسنا من أننا أحرار في الاختيار ، وأنا نستطيع أن نعمل الشيء وألا نعمله ، فمن كذب شعر من نفسه بأنه كان يستطيع ألا يكذب ، ومن أجل هذا يندم على كذبه ، ولو كان كذبه محتما عليه ما ندم — ولولا أن ارادة الانسان حرّة في اختيار الخير والشرّ لما كان هناك معنى للتعالم الأخلاقية ، ولما كان الأمر بفعل الخير والنهي عن الشرّ ضربا من العيب ، ولما كان هناك معنى للشواب والعقاب والمدح والذم .

وهناك نوعان من المسؤولية : مسؤولية قانونية ، ومسؤولية أخلاقية ، فالإنسان إذا خالف قانون البلاد كان مسئولا أمام القضاء ، وعوقب من أجل مخالفته ، وإذا خالف أوامر الأخلاق كان مسئولا أمام الله وأمام ضميره ، والمسؤولية الأخلاقية أوسع دائرة من المسؤولية القانونية : ذلك لأن القانون لا يأمر ولا ينهى إلا إذا استطاع أن يعاقب من يخالف أمره ونهيه بالعقوبات التي نص عليها ، أما الأخلاق فسلطانها أوسع ، لأن من يتولى لها المثوبة والعقوبة هو الله والضمير ، وكلاهما يشرف على الأعمال الظاهرة والباطنة — فالقانون لا يستطيع أن ينهى عن الكذب والحسد لأنه لا يستطيع أن «يسأل» من يرتكبهما ، ولو حاول أن يعاقب الكاذب أو الحاسد لارتكب من إضرار الناس بالوشاية والتجسس أكثر مما يصلح ، أما الأخلاق فتنتهى عن الكذب والحسد وتنتهى عن أكثر من ذلك . فتسأل الإنسان عن نياته التي في أعماق نفسه ولو لم يصدر عنها عمل ، وتكل مكافأته على نياته الحسنة ومعاقبته على نياته السيئة إلى الله وإلى ضميره .

الفصل الثاني

الضمير — الضمير والإرادة — تربية الضمير

يلاحظ الإنسان أن في أعماق نفسه قوة تحذره فعل الشر إذا أُغْرِى به ، وتحاول أن تمنعه من فعله ، فإذا هو أصرّ على عمله أحس بانقباض نفسه أثناء العمل لعصيانه تلك القوة ، حتى إذا أتم العمل أخذت هذه القوة توبخه على الإتيان به ، وبدأ يندم على ما فعل ، كالطالب يحاول الغش في الامتحان فيحس صوتاً باطنياً يناديه ألا يفعل ، فإذا لم يسمع لهذا الصوت وبدأ يغش أحس أن هذه القوة تثبطه ، فإذا استمر في عمله أثبتته وندم وعزم ألا يعود .

كذلك يحس أن هذه القوة تأمره بفعل الواجب ، فإذا بدأ في عمله شجعتة على الاستمرار فيه ، فإذا انتهى منه شعر بارتياح وسرور ، ورفعة نفسه وعظمتها ، كالطالب يرى آخر مشرفاً على الغرق فينقذه ، فحين إنقاذه يشعر بتشجيع نفسه على المضي في عمله فإذا أتم ذلك شعر بغبطة وسعادة .

هذه القوة الآمرة الناهية تسمى « الضمير » ، وهى — كما رأيت — تسبق العمل وتقارنه وتلحقه ، فتسبقه بالإرشاد الى عمل الواجب ، والنهى عن الرذيلة ، وتقارنه بالتشجيع على الخير ، والتشبيط عن الشر ، وتلحقه بالارتياح والسرور عند الطاعة والشعور بالألم والوخز عند العصيان .

هذا الضمير نشعر به كأنه صوت ينبعث من أعماق صدورنا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ولو لم نرج مكافأة أو نخش عقوبة ، نرى البائس الفقير يحد مالا أو مناخا وهو أشد ما يكون حاجة الى مثله ، ولم يكن رآه أحد إلا ربه ، ثم هو يتعفف عنه ويؤديه الى صاحبه ، فما الذى حمّله على ذلك ! لاشئ إلا الضمير يأمر صاحبه بعمل الواجب لا لمثوبة ولا عقوبة إلا لمثوبة نفسه بارتياحها ، وعقوبة نفسه بالندم والتأنيب .

وهذا الضمير طبيعى حتى فى الحيوانات الراقية ، فنرى الكلب مثلا عنده نوع إدراك طبيعى للواجب ، ويرقى هذا الإدراك بمخالطته للانسان ، حتى نراه أحيانا يفعل فى الخفاء جرما كأن يسرق شيئا من سيده ، أو يخالفه فى أمر أمره به ، فيظهر على الكلب حينئذ نوع من الاضطراب والقلق يعد جرثومة للضمير .

ونلاحظ كذلك جرثومة الضمير في الطفل الصغير ، يعلوه
 النجمل أحيانا خطأ ارتكبه فتبينته في نظرتة ، ويدلنا اضطرابه
 وقلقه على أنه ارتكب خطأ — وينمو هذا الشعور بنمو الانسان
 حتى يصل به الى حد أن يملأه الفرح والغبطة اذا هو أدى الواجب ،
 ويذوب أسفا وندما اذا عصى أمر الضمير ، وهذا الشعور تجده
 يتبع حالة الانسان ، فهو في حالة سذاجة عند المتوحش ، كشأنه
 في حديثه وعرفه وحالته الاجتماعية ، فإذا رقى الإنسان رقى ضميره ،
 حتى قد يدفعه الى بذل نفسه دفاعا عن رأيه أو في سبيل إصلاح
 قومه .

اختلاف الضمير — ليس الضمير هاديا معصوما يأمر
 بالخير دائما ، وينهى عن الشر دائما ، ولا هو يأمر الأفراد في الأمم
 المختلفة أوامر واحدة متساوية في القوة ، فإننا نرى أن الأمة التي
 تقدر النظام في الحياة تقديرا كبيرا يكون أبنائها أشد إحساسا به ،
 وضمائرهم أقوى في المطالبة باتباعه ، وعلى العكس من ذلك الأمة
 التي لا تؤمن بفضيلة النظام هذا الايمان .

وأفراد الأمة التي لا تسترذل الكسل لدرجة كبيرة لا يؤنبهم
 ضميرهم تأنيبا شديدا اذا استسلموا للكسل .

بل الأمة الواحدة يختلف ما يأمر به ضميرها باختلاف العصور، فقد رأينا مثلاً منذ سنين قلائل أن كثيراً من المصريين كانوا يوسعون مجال الخلف بين المسلمين والأقباط، وتستحثهم ضمائرهم على الدعوة إلى ذلك، ويرتاح كل فريق بما يليق من الخطب، ويكتب من المقالات، في تأييد فريقه والطعن على الفريق الآخر، واليوم نرى أن هذه الدعوة من أكبر الجرائم وأعظم الشرور، ولا تطاوعنا ضمائرنا إذا أردنا أن نمس هذه الوحدة بسوء.

بل الفرد الواحد قد يأمره ضميره بشيء في زمن ويأمره بعكس ذلك في زمن آخر، كالطالب يأمره ضميره أن ينهمك في القراءة والدرس من غير أن يراعى جسمه وصحته، فإذا درس قانون الصحة أو شعر بمرض فهم أن لجسمه عليه حقاً ولعقله عليه حقاً، وطالبه ضميره بأن يراعى صحته وعقله جميعاً.

والسبب في اختلاف أوامره أن الضمير يتأثر بعاملين كبيرين.

فيتأثر (أولاً) بالحالة الاجتماعية للأمة وعرفها ودرجة رقيها، فالإنسان ينشأ في أسرة تستحسن أعمالاً وتستقبح أخرى فيتبعها في استحسانها واستقبحها، ثم هو إذا خرج إلى الحياة العامة تبادل مع الناس الأخذ والعطاء فيلتقط آراءهم في الخير والشر، ويقلدهم

في ذلك ، ويسايرهم فيما يستحسنون وما يستقبحون ، ويأمره ضميره أن يفعل كما يفعلون .

(ثانيا) يتأثر ضمير كل انسان بدرجة عقله وعلمه ، فكلما زاد علم الانسان ونما عقله ارتقى ضميره ، ذلك أن الخبرة والتجربة ومعرفته بنتائج الأشياء النافعة والضارة توسع عقله ، فيتبع ذلك ارتقاء ضميره ، حتى قد يأمره ضميره بعد هذه التجارب بما كان ينهاه عنه من قبل ، وينهاه عما كان يأمره به ، لأن عقله عرف من الحقائق ما كان يجهله ، بل هو اذا وصل الى درجة كبيرة من رقى العقل كان ضميره تابعا لعقله أكثر من تبعيته لتقاليد قومه ، وأستطاع — اذا هو رزق وسائل الرعامة — أن يغير ما يستنكره من عادات قومه .



ومع أن الضمير يختلف باختلاف الأمم واختلاف العصور وأنه قد يخطئ أحيانا في أمره ونهيه — كما رأيت — فإن كل إنسان ملزم باطاعة ضميره ، لأنه مأمور بعمل ما يعتقد أنه الحق لا بعمل ما هو حق في الواقع ، فالذي يعتقد شيئا حقا ويأمره ضميره بعمله ملزم أن يطيعه ، وليس هناك مسئولية أخلاقية عليه اذا تبين خطأ ما أمره به ضميره ، غاية الأمر أنه يجب عليه أن

يضىء السبيل أمام ضميره بتوسيع عقله وتقوية فكره وتحزيره الصواب، فإن هو فعل ذلك كان الضمير هاديا مرشدا، وكان له العذر إذا تبين خطأ ما أمر به ضميره .

الضمير والإرادة — لا قيمة للضمير يأمر وينهى إذا لم يُدعم بإرادة تنفذ أمره ونهيه ، فقد يشعر الإنسان بالواجب ويتأكد من أنه واجب ويأمره ضميره به ولكن يذهب كل ذلك هباء إذا لم يُمنح إرادة قوية تُخرج هذا الأمر الى الوجود، فالإرادة هى القوة الفاعلة فى الإنسان وبدونها تكون أوامر الضمير أحلاما وأمانى لا قيمة لها، ولذلك يقول بعضهم : ” إن جهنم مرصوفة بالأمانى الطيبة“ يريد بذلك أن الأمانى الطيبة إذا لم تبرزها الإرادة الى الوجود فأولى بها الجحيم لا الجنة، إنما يصلح للجنة الأمانى الطيبة التى حوّلتها الإرادة الى عمل ويقول الشاعر العربى :

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا
قد تعترض أمام ما يأمر به الضمير عقبات ، فالإرادة القوية تذللها وتشعر بارتياح من تذليلها والتغلب عليها .

وكما نحتاج الى الإرادة فى تنفيذ أوامر الضمير نحتاج اليها فى تنفيذ نهيه ، وذلك بمقاومة الميل الى الشر وصيته والوقوف فى سبيله حتى لا يخرج الى الوجود .

والإرادة القوية سر النجاح في الحياة — وفضائل الانسان وملكاته تظل في سبات حتى توقظها الارادة، فمهارة الصانع، وقوة عقل المفكر، والشعور بالواجب ومعرفة ما ينبغي وما لا ينبغي، كل هذا لا أثر له في الحياة ما لم تحوله قوة الارادة الى عمل .

تربية الضمير — الضمير — ككل ملكات الانسان وقواه — تنمو بالتربية وتضعف بالإهمال ، فبعصيان الضمير يضعف أويموت، شأنه في ذلك شأن أديب يتذوق الشعر والأدب، فاذا هو أهمل قراءة الأدب وأشتغل « بالرياضة » ضعف ذوقه الأدبي حتى قد يصل الى درجة لا يدرك معها ما في الأدب من جمال ، كذلك يعصى الانسان ضميره مرة فيحس بلذع شديد من جرأ عصيانه، فاذا تكرر منه العصيان أحس بلذع دون ما كان يشعر به عند أول مخالفة، ولا يزال الانسان يتبع السيئة السيئة حتى لا يشعر بأى نوع من اللوم والتأنيب، لأن صوت ضميره قد خفت وسلطانه قد ضعف — وكما يضعف الضمير بالعصيان يضعف بصحبة الأشرار وإطالة القراءة في الكتب الساقطة، فكلا الأمرين يكرر منظر الشر أمام النفس حتى تعتاده ، وكلاهما يتحدث عن الشر حديث المستحسن فيتخذر الضمير ويخمد صوته .

ويحيا الضمير بمداومة طاعته ، وباستخدام الازادة في تنفيذ
أمره ونهيه وصحبة الأخيار وقراءة الكتب التي تدعو الى الفضيلة ،
ومما يساعد على نموه قوانين البلاد، فإنها ان كانت صالحة
شاركت الأخلاق في الأمر بالخير، فتساعد على حياة الضمير وتزيد
في سلطانه .

خير شيء في الإنسان ضميره، فهو "الدليل" الذي يهتدى
سبيل السلام .

الفصل الثالث

الحكم الأخلاقيّ — مقياس الحكم الأخلاقيّ —
 الرأى الشخصىّ — العرف — الوجدان —
 العقل والاستدلال — تربية الحكم الأخلاقيّ

تصدر من الانسان أحكام كثيرة متنوعة، فاذا قال: «المبتدأ
 مرفوع» فهذا حكم نحويّ لا أخلاقيّ، واذا قال: «الأجسام تمتد
 بالحرارة» فهذا حكم طبيعى لا أخلاقيّ، انما الحكم الأخلاقيّ هو أن
 تحكم على الشئ بأنه خير أو شر، فالصدق خير حكم أخلاقيّ،
 والكذب شر كذلك .

وقد علمنا مما تقدّم أن الحكم الأخلاقيّ لا يصدر إلا على
 الأعمال الإرادية، فما لم تكن ارادة لا يصدر حكم أخلاقيّ، فلو
 فاض النيل فأغرق كثيرا من البلدان، أو هبت طائفة فدمرت
 بلادا، أو هاجت الأمواج فأغرقت سفنا، لا نحكم على هذه
 الأعمال بأنها شر، اذ لا ارادة، ولو فاض النيل فى اعتدال فروى
 الأرض وأنادها، وهب نسيم عليل فأزهر النبات وأنعمش النفوس

لم نحكم على ذلك بأنه خير، كذلك اذا جمع حصان فاقع راكبه، او سار سيرا حسنا فأوصل صاحبه الى غايته لا نحكم على عمله بأنه شر في الأولى ولا خير في الثانية ما دمنا لا نعترف للحصان بـ ارادة — وكذلك أعمال الانسان غير الارادية كالتى سبق شرحها .

والآن نريد أن نسأل : قد عرفنا ما نحكم عليه من الأعمال بأنه خير أو شر وما لا نحكم، ولكن اذا أردنا أن نحكم فهل نحكم على العمل باعتبار نتائجه أو باعتبار الغرض الذى أراداه العامل من عمله ؟ ولتوضيح ذلك نقول :

إن هناك غرضا للعامل من عمله ، وهذا يسبق العمل ، وهناك نتائج تحصل من العمل وهذه تلحقه ، فمثلا قد يقرر جماعة من الأطباء بعد الفحص اجراء عملية لمريض ، ثم يتبين بعد اجرائها أن الفكرة كانت خطأ ، وأنه كان الأولى ألا تعمل ، ثم يموت المريض منها ، فغرض الأطباء أن يشفى المريض ، ولأجل هذا أقدموا على ما عملوا ، ولكن النتيجة أنه مات ، وهذا الغرض كان قبل العمل ، وهو غرض حسن ، والنتيجة حصلت بعد العمل ، وهى سيئة ، فهل نحكم على الأطباء باعتبار غرضهم أو باعتبار نتيجة عملهم ؟ وهكذا كثير من الأعمال ، كرجال حكومة أعلنوا

الحرب على أمة أخرى لأنهم رأوا خيراً أمتهم في ذلك ، وقد رأوا قوتهم أكبر من قوة عدوهم ، وحسبوا أن ما يغنمون من الفوائد أكبر مما يفقدون من جنودهم وأموالهم ، ولكن خاب ما أتملوا ، فهُزِموا وسلبوا بعض الولايات ، فغرضهم كان الخيراً لأمتهم ، والنتيجة كانت شراً لها ، فعلى أى اعتبار نحكم ؟ وكذلك العكس ، فقد يريد الإنسان شراً ثم تكون النتيجة خيراً ، كمن يريد أن يغش آخر فيغريه بشراء شيء يظن فيه الخسارة له ، فيغتم الشاري من وراء ذلك ربها كبيراً ، فالغرض شر والنتيجة خير ، فهل نحكم على العمل بأنه شر تبعاً للغرض أو خير تبعاً للنتيجة ؟

الحق أن العمل يجب أن يحكم عليه بأنه خير أو شر نظراً للغرض العامل منه لا نظراً لنتيجته ، فالعمل الذي قصد به الخير خير مهما استتبع من النتائج ، والذي أريد به الشر شر ولو استتبع نتائج حسنة ، فقبل الحكم على عمل ينبغي أن نعرف غرض العامل منه — أما العمل في ذاته من غير نظر إلى الغرض منه فليس بخير ولا بشر ، فلو سألتني هل إحراق أوراق مالية قيمتها ألف جنيه خير أو شر ؟ لأجبتك : لا يمكن ذلك حتى أتينا غرض العامل من عمله ، فقد يكون شراً إذا أراد من إحراقها الانتقام من مالكها ، وقد

يكون خيرا كما اذا قُدمت رشوة لقاض و رأى القاضى أن لا سبيل الى تأديب الراشى إلا إحراقها .

ولما كان الحكم الأخلاقى يعتمد على معرفة غرض العامل من عمله لم يجوز لنا أن نصدر الحكم بالخير أو الشر إلا على أنفسنا أو على من نتحقق غرضهم من أعمالهم ، إما بإخبارهم ، أو بقيام القرائن على أغراضهم ، فاذا رأينا من انسان عملا فلا نعجل بالحكم عليه ، بل يجب أن تترى حتى نعرف غرضه منه .

نعم هناك أحكام أخرى نصدرها على العمل باعتبار نتائجه لا باعتبار الغرض منه ، وذلك كالحكم على العمل بأنه نافع أو ضار ، فإنه انما يصدر باعتبار نتيجته ، والحكم على الشئ بأنه نافع أو ضار غير الحكم عليه بأنه خير أو شر ، كلاهما ينظر الى الشئ من جهة غير التى ينظر اليها الآخر ، فعمل الأطباء فى المثال السابق خير ضار ، خير لأنهم قصدوا الى شفاء المريض ، وضار لأن النتيجة كانت وفاته ، وهكذا ، ولكن يجب أن نعلم أن الحكم على الفعل بأنه نافع أو ضار تبعا لنتائجه ليس حكما أخلاقيا ، انما الحكم الأخلاقى هو الحكم بأنه خير أو شر تبعا للغرض منه .

والإنسان لا يلام على عمل عمله يريد منه الخير مهما ساءت نتائجه ، بشرط أن يكون قد بذل جهده فى معرفة ما ينتج من عمله ،

وإنما يلام اذا كان في استطاعته أن يرى النتائج اذا دقق في البحث وأنعم النظر ثم لم يفعل ، فموضع اللوم هو التقصير عند اختيار العمل ، وعدم الدقة في حساب نتائجها ، وليس موضع اللوم هو ارادة العمل الصالح ، ففي مثل الأطباء السابق لا لوم عليهم اذا كانوا بذلوا أقصى جهدهم في فحصهم وأتت النتيجة بما ليس في حسابهم ، إنما يلامون اذا قصرُوا في الحكم وبنوا حكمهم على نظر سطحي غير دقيق .



في جميع ما تقدم كان الحكم الأخلاقي يصدر على العمل ، ولكن نرى أحيانا أن الحكم الأخلاقي يصدر على العامل ، فيقال : إن فلانا طيب وفلانا خبيث أو أنه خير أو شرير ، فما الذي نلاحظه عند حكمنا هذا الحكم ؟

عند ما نحكم على العامل نلاحظ «حاصل الجمع» لما يأتي به من أعمال . فقد عرفنا — قبل — ما هو العمل الخير ، وما هو العمل الشر ، فالآن نذكر لك أن الرجل الخير أو الطيب هو الذي يصدر عنه من الأعمال الخيرة أكثر مما يصدر عنه من الشر ، والرجل الشرير هو الذي يكثر منه صدور الأعمال الشريرة ، ومن هذا نستنتج أن الرجل الخير قد يأتي بعمل شر ولكن يكون الغالب

عليه عمل الخير، لأننا في حكمنا على العمل إنما نلاحظ الغرض من عمله وفي حكمنا على العامل نلاحظ مجموع أعماله في حياته .



ولكن بأيّ مقياس أقيس الشيء فأحكم عليه بالخير أو الشر؟ إن الناس كثيرا ما يختلفون في نظرهم الى الشيء الواحد فمنهم من يراه خيرا ومنهم من يراه شرا، بل الشخص الواحد قد يرى الشيء خيرا في آن ثم يراه شرا في آن آخر، فما هذا المقياس الذي بمراعاته نصدر هذا الحكم؟ وأي شيء يراعيه الناس فيقولون : إنه خيرا أو شرا؟

للإجابة على هذا السؤال نستعرض المقاييس التي يستعملها الناس، وقد رأى الباحثون أن الحكم الأخلاقي تدرج في الرقي: بتدرج الناس، فهم في حالة سذاجتهم ينظرون الى الأشياء ويحكمون عليها بمقياس، ثم اذا ارتقوا قليلا تغير مقياسهم وحكمهم، وهكذا حتى يصلوا الى درجة كبيرة من الرقي فيسمو كذلك حكمهم الأخلاقي؛ ولتتبع الآن الأدوار التي مرت بها الناس .

العرف — فأقول دور سلوكه في معرفة الخير والشر « العرف » — ونعني بالعرف « عادة الأمة » فاذا اعتادت أمة عملا وكان فاشيا فيهم فذلك عرف، فزيارة القبور في الأعيا عادة

للمصريين ، فهذا عرف ، وعادة كل أمة في ملابسها ونظام معيشتها ونحو ذلك يسمى عرفا .

ولكل أمة عرف خاص تعدّ خيرها في آتباعه ، وتؤدّب الأطفال به ، وتشعرهم بأن فيه شيئا من التقديس ، وإذا خالفه أحد استهجنتم عمله وعدّته خروجا عليها ، فمن الصعب الخروج على المألوف من عرف في الملبس والمأكل ونظام الأفراح والمآتم وطرق التحية ونحو ذلك .

والناس منساقون الى تنفيذ ما يقضى به العرف ، وذلك بتأثير الرأي العام ، فالناس — عادة — يمدحون متبعي العرف ، ويستخرون من مخالفه ، فلو خرج أحد على عادة الأمة في زيها أو أفراحها ومآتمها أو طرق تحياتها كان موضعاً للنقد القاسى .

وفي أيام سذاجة الناس وبدائتهم لم يكن لهم مقياس يقيسون به العمل إلا العرف ، فهم يحكمون على العمل بأنه خير لموافقته للعرف وبشر لمخالفته له ، ولا يزال كثير من الناس في كل أمة مهما بلغت من الحضارة يعملون ما يعملون لا لسبب إلا أنه يتفق وعادات قومهم ، ويحتنبون ما يحتنبون لأن قومهم لا يعملون — فمقياس الخير والشر في نظرهم هو العرف ، وبه يصدرّون أحكامهم على الأشياء .

فلما آرتقى الناس تبين لهم أن العرف لا يصح أن يتخذ مقياسا ،
فبعض أوامره غير معقول ، وبعضها ضار — فوآد البنات كان
عرفا لبعض قبائل العرب فى الجاهلية ، وهو عرف ضار ناهم
الاسلام عنه وأبان ما فيه من خطأ ، وعند الرومان كان الأب له
الحق فى إماتة أولاده وإحيائهم ، والرق مع ما كان فيه من معاملة
قاسية كان فاشيا فى كثير من الأمم ، وعادات المصريين فى أفراحهم
وما تمهم عرف ضار وهكذا .

واذا كان العرف قد يخطئ ويتبين الخلف سوء ما كان عليه
السلف لم يصح أن يكون مقياسا صحيحا نقيس به الأعمال فنحكم
عليها بالخير أو الشر .

ولو أن الناس جروا على مبدأ العرف لم يتقدم العالم عما كان
عليه من قديم ، لأنه إنما يتقدم بأولئك الذين يرون خطأ العرف
فيجاهرون بمخالفته ، ويدعون قومهم للخروج عليه ، فيلتف حولهم
كثير من الناس ، ويأخذ رأيهم فى الانسار حتى يحل الحديد
الحق محل القديم الخطأ .

ومع هذا فإن جرى الناس على هذا المقياس كان له بعض
الفائدة ، فقد حمل كثيرا أن يأتوا بالعادات الصالحة ويمتنعوا عن
السيئة جريا مع العرف ورجاء لمدح الناس وخوفا من ذمهم .



الرأى الشخصى — يلاحظ الذين يدرسون القبائل فى حالتها الأولى من البداوة أن الفرد من القبيلة لا يحس إحساساً قوياً أنه فرد مستقل بذاته ، وإنما يغلب عليه الإحساس بأنه جزء من قبيلة ، يحيا بحياتها ويموت بموتها ، ويظهر هذا ظهوراً بليّناً حين تقرأ الشعر الجاهلى فترى فيه أن شخصية الشاعر اندمجت فى قبيلته حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص ، وتبين ذلك بجلالة فى معلقة عمرو بن كلثوم — وقيل أن تعثر على شعر من أشعار الجاهلية ظهرت فيه شخصية الشاعر ، ووصف ما يشعر به وجدانه ، إنما هو كثير التحدث عن قبيلته وأخبارها وأفعالها .

وفى هذا الدور لا يكون للأخلاق مقياس إلا العرف ، فليس للفرد رأى شخصى يقوم به الشئ ليحكم عليه بأنه خير أو شر بل ليس له إلا أن يستحسن ما استحسن قومه ويستقبح ما استقبحوا ، فهو لا يأتى بعمل أو يتجنب عملاً بناء على تفكير منه ووزن له ، بل لأن قومه يأتونه أو يمتنّبونه .

فاذا ارتقى الناس عن هذا الدور شعر الفرد بأنه — وإن كان عضواً فى مجتمع — فله شخصيته ، وأن نفسه مستقلة عن قومه ،

وأن له مصالح شخصية كما أن لقومه مصالح ، وأن عقله من الاستقلال بحيث يستطيع ألا يخضع للعرف خضوعاً أعمى ، بل في قدرته أن يزن الأعمال فيحكم عليها بالخير أو الشر وإن خالف العرف .

نرى هذا في التاريخ دائماً ، فعند نهوض كل قوم وأخذهم بحظ كبير من الرقي يظهر أفراد يخرجون على التقاليد الموروثة المتعارفة إذا رأوها ضارة ، ويزنون الأشياء وزناً جديداً ، فيعلنون استحسانهم لأشياء يستهجنها عرفهم ، ويستقبحون أشياء يستحسنها العرف ، وينتشر رأيهم شيئاً فشيئاً حتى يميل الناس اليه ، ويقتنعوا به ، وبهذا تنكسر قوة العرف — حصل هذا في عصر السوفسطائيين في اليونان ، وفي عصر النهضة في روما ، وفي أيام الثورة الفرنسية في فرنسا وهكذا .

في هذا الدور يشعر الإنسان أن العرف غير صالح لأن يكون مقياساً ، وأن له من القوة ما يمكنه من تقويم الأشياء والحكم عليها ، ولكن يتساءل بم يقوّمها ؟ كيف يعرف الخير والشر ؟ ما الذي يضعه محل العرف ليعرف الحق من الباطل ؟ وعند ذاك يأتي دور البحث العلمي .

الوجدان — أجب قوم عن هذه الأسئلة المتقدمة بأن
 في كل إنسان قوة غريزية يميز بها بين الحق والباطل ، فكل إنسان
 إذا عُرِض عليه عمل تلهمه هذه القوة أنه خير أو شر، وهذه القوة
 مُنِحناها لتمييزها بين الخير والشر كما منحنا العين لنبصر بها ، والأذن
 لنسمع بها ، والحكم الأخلاقي يعتمد على هذه القوة فيصُدِّرُ
 بالاستحسان أو الاستقباح ، وقد ذهب بعض العلماء الى أن
 أساس هذا الحكم هو ”الوجدان“ ويعنون به شعور الإنسان
 الطبيعي بالارتياح من العمل أو النفور منه كالارتياح والنفور
 الذي يشعر به الإنسان عند رؤيته شيئا جميلا أو قبيحا ، فعند
 ما توسوس له نفسه بالكذب أو بسرقة يشعر باشمئزاز طبيعي من
 إتيان ذلك فيحكم عليه بأنه شر ، وكذلك عند ما يسمع خيرا
 باغاثة ملهوف أو إحسانا الى فقير أو عدل في حكم يشعر بارتياح
 طبيعي فيحكم على ذلك بأنه خير .

وقد تصاب هذه القوة الوجدانية بمرض فتري الخير شرا
 والشر خيرا كما تصاب كل حاسة بالمرض ، وكما تخطئ القوة العقلية ،
 فكما أنا لو أعطينا عددا من التلاميذ مسائل حسابية فبعضهم
 يخطئ في حلها وبعضهم يصيب ولكنها نعرف أن هؤلاء أصابوا
 وهؤلاء أخطؤا كذلك يختلف الناس في صحة الوجدان ومريضه ،

فبعضهم يحكم بالشرّ على ما يحكم عليه الآخر بالخير، ويمكن أن نعرف المخطئ من المصيب ، وسيأتى توضيح ذلك عند الكلام على مذهب اللّقانة .

العقل والاستدلال — ويرى علماء آخرون أن ليس في الإنسان قوة طبيعية يحكم بها على الأعمال ، إنما نحكم عليها بالعقل والاستدلال ، فليس في الإنسان حاسة غريزية يدرك بها الخير والشرّ ، ولكن يحكم عليها بمقتضى تجاربه ، فالناس عملوا أعمالاً ، ولاحظوا ما ينتج عنها ، فرأوا نتائجها حسنة فحكوا بخيريتها ، وعملوا أعمالاً رأوا نتائجها سيئة فحكوا بالشرّ ، وليست القوة الأخلاقية التي نعرف بها الخير والشرّ إلا عقلنا وتجاربنا ، واستمرار الأمة في تجاربها يفضي بها إلى تعديل آرائها في الأشياء ، والسبب في تغير آراء الأمم والأفراد في الحكم على الأشياء هو اتساع مداركها بكثرة تجاربها وملاحظاتها واستدلالها ، وسيتضح ذلك عند الكلام على المذاهب الأخلاقية .

من هذا ترى أن الحكم الأخلاقي تدرّج بتدرّج الناس في الرقيّ ، فكانوا أوّل أمرهم لا مقياس لهم إلا العرف ثم فهموا أن العرف لا يصح أن يكون مقياساً ، فجاء بعد ذلك دور البحث والتفكير العلمي .

وكذلك ترى أن العرف — أولاً — كان هو المقياس ولكنه مقياس خاص بالأمة وحدها ، إذ كل أمة لها عرفها ، فلما جاء دور البحث العلمى أصبح الحكم الأخلاقى ينبئ على أسس عالمية ، وبعبارة أخرى أصبح ينبئ على مبادئ عامة تصلح لكل أمة فى كل عصر ، وسنوضح تلك المبادئ والمذاهب المشهورة التى أدت إليها البحث فى الفصل التالى .

تربية الحكم الأخلاقى — قوة الحكم الأخلاقى ترقى برقى
الانسان ، فهو يولد وعنده جرثومة الحكم الأخلاقى ، تولد معه
حسب قانون الوراثة .

ثم ينشأ فى أسرته فيراهم يمدحون أشياء ويذمون أخرى
ويكافئون على أعمال ويعاقبون على أخرى ، فينشو عنده الحكم
الأخلاقى بذلك ، ويتبع أسرته فى مدحها وذمها ، ويستحسن من
الأشياء ما مدح عليه ، ويستهجى ما ذم من أجله ، ثم إذا نما شعر
بأنه مضطر أن يتبادل مع إخوته وأخواته الأخذ والعطاء ، فيوجد
عنده الشعور بضرورة تبادل المنافع ، فهو يعطيهم مما يناله ليعطوه
مما ينالون ، فيرقى عنده بذلك الحكم الأخلاقى .

فاذا خرج الى العالم وتبادل مع الناس المعاملة ورأى حاجته
الى معوتهم وأدرك أنه لا يعيش سعيدا بينهم إلا بمراعاة قوانين

وتقاليد اتسع عنده مجال الحكم الأخلاقي ، فاذا هو تقدم في العلم ساعده علمه على إضاءة السبيل له ليميز بين الحق والباطل ، فكثير من الأعمال الضارة او الخرافية سببه الجهل بالقوانين الطبيعية ، فاستقبال العامة للخصوف والكسوف بالضرب على الأواني النحاسية أو الحديدية مثلا سببه الجهل بأسباب الخسوف والكسوف ، ومعرفتنا بشيء من الجغرافيا الطبيعية أو الهيئة يبين أن هذا العمل وأمثاله خرافة لا أساس لها ، ومعرفتنا بشيء من قوانين الصحة يغير نظرنا الى كثير من الأعمال ، وانتشار العلم عن النبات والحيوان والمرض والصحة في أية أمة يجعل كثيرا من أفرادها يخرجون على العرف المألوف الذي لا يتفق ونظريات العلوم ، والعلم يزيد الانسان شعورا بشخصيته وبأن له قوة على الحكم على الأشياء ، وأنه ليس أسيرا للعرف والتقاليد .

كذلك دراسة علم الأخلاق ، واستعراض النظريات التي يبنى عليها الحكم الأخلاقي ، وتقديرها ، وبيان ما يصح منها وما لا يصح ، وبيان ما كان الناس عليه أيام بداوتهم في عرفهم وتقاليدهم ، وكيف كانوا يحكمون على الأشياء ، وما وصلوا إليه من الرقي ، وكيف تغير نظرهم الى الأشياء برقيهم . كل هذا يجعل الانسان أصح حكما وأصدق نظرا .

الفصل الرابع

مذاهب علم الأخلاق ونظرياته

أشرنا في الفصل الماضي الى أن الناس في أحكامهم على الأشياء يراعون مقياسا خاصا ، فيحكمون على الشيء بأنه طويل أو قصير ويحكمون في ذلك الى "المتر" مثلا ، ويحكمون على الشيء بأنه خفيف أو ثقيل ويحكمون في ذلك الى "الأقّة" أو "الرطل" أو نحوهما ، فما الذي نراعيه في أحكامنا الأخلاقية ؟ إنا نقول : الصدق خير والكذب شرّ فما هو المقياس الذي عرفت به ذلك ؟ وإذا عرض موقف حرج وأردت أن أعرف أأصدق فيه أم أكذب ، وتجادل المتجادلون فيه بين محبذ للصدق ومحبذ للكذب فالى أى المقاييس نحتكم ؟ والناس يقولون : إن الصدق والعدل والشجاعة والعفة فضائل ، وأضدادها رذائل ، فما الشيء الذى فيها حتى جعلها فضائل أو رذائل ؟ وبأى مقياس قاس الناس حتى حكموا هذا الحكم ؟

هذا الموضوع هو الذى يسمى "المقياس الأخلاقى" ولم يتفق الباحثون فيه ولم يجيبوا عن الأسئلة الماضية جوابا واحدا، بل تعددت فيه المذاهب، ونحن نذكر أهمها :

(١) مذهب السعادة^(١)

لما بحث العلماء فى مقياس الخير والشر بحثا علميا ذهب كثير منهم الى أن هذا المقياس هو "السعادة" وقالوا : إن السعادة هى الغاية الأخيرة للحياة، وهى التى تحرك جميع الناس للعمل، فإذا حلت عمل أى إنسان رأيت أنه إنما يطلب بعمله "السعادة" فالطالب يتعلم، ومحب المال يجمع، والرجل يتزوج، والعالم يؤلف، والكاتب يكتب، والقاضى يقضى، والصانع يصنع، وكل هؤلاء لو حلت أغراضهم من أعمالهم وجدت أن الغاية الأخيرة التى يرمون إليها هى تحصيل السعادة .

ولكن السعادة كلمة غامضة، وإنما يعنى بها أصحاب هذا المذهب "تحصيل اللذة وتجنب الألم" فهم يقولون : إن الانسان فى أعماله : من سعى لتحصيل الرزق، وتحصيل العلم، ومداواة مرض، وأكل وشرب، وتأليف، ونوم، ورياضة، إنما يطلب

(١) يسمى هذا المذهب بالانجليزية Hedonism

أحد شيئين : إما تحصيل لذة، أو تجنب ألم، ولا يمكن أن يخرج عمل عمله عن هذين الغرضين .

واللذة هي مقياس العمل ، فالعمل يقوم بحسب كمية اللذة التي ينتجها، فيقال : إن هذا العمل خير وذاك شر لأن الأول ينتج من اللذة أكثر من الألم، والثاني ينتج ألماً أكثر من اللذة .

وليس مذهب السعادة يقول : ينبغي أن يطلب الإنسان السعادة (اللذة) فحسب، لأن ذلك من طبيعة الإنسان، وكل الناس إنما يبحثون وراء اللذة، وكل عمل لا يخلو من لذة، وإنما يقول : ينبغي أن يطلب أكبر سعادة، أو بعبارة أخرى أكبر لذة، فاذا خيّر بين جملة أعمال ينبغي أن يطلب أكبرها لذة، والإنسان المفرط في شهواته لا يلام لأنه يطلب اللذة، فكلنا يطلب ذلك، ولكن يلام لأن إفراطه في الشهوات يستب من الآلام أكبر مما يسبب من اللذائذ، والذي كذب إنما يلام لأنه حصل بكذبه لذة صغيرة وأنتج ألماً كبيراً وهكذا .

وقال أصحاب هذا المذهب : إن اللذائذ يمكن أن تقارن، ويجب عند تفضيل لذة على لذة مراعاة الشدة والمدة، وكذلك الألم، لأنه يعتبر لذة سالبة، فاذا سئلت عن عملين أيهما أفضل :

بناء مستشفى مثلاً، أو التصديق على الفقراء بالمال ؟ فاحسب حساب ما ينتج عن كل من اللذائذ، ومدة هذه اللذائذ، فإذا كان الأول ينتج لذة بمقدار ٨٠ مثلاً في مدة عشر سنوات، والثاني ينتج ٢٠٠ في مدة سنتين، كان العمل الأول هو الواجب، لأن لذته مع مراعاة مدتها أكثر وهكذا .

ولكن إذا قلنا : إن السعادة هي الغاية الوحيدة للإنسان فلا شيء غيرها، وأنها هي المقياس الذي نقيس به العمل لنعرف أخيراً هو أم شر، فسعادة من نريد ؟

هل ينبغي أن يطلب الإنسان أكبر سعادة لشخصه هو، فالعمل خير إذا كان يسبب للعامل نفسه لذة أكبر من الألم، وشر إذا كان ينتج لنفسه ألماً أكثر من اللذة ؟

أو ينبغي للإنسان أن يطلب اللذة للعالم الذي يعيش فيه، فالعمل خير إذا كان ينتج لذة للناس أكبر مما ينتج من الألم — ولو كان ينتج للعامل نفسه ألماً أكبر — وشر إذا كان ينتج للناس ألماً أكبر ؟ هذان مذهبان للقائلين بالسعادة :

(أ) مذهب السعادة الشخصية . (ب) مذهب السعادة العامة، ويسمى أيضاً مذهب المنفعة .

(١) مذهب السعادة الشخصية^(١)

هو المذهب القائل : إن الإنسان ينبغي أن يطلب أكبر لذة لشخصه ، ويجب أن يوجه أعماله للحصول عليها .

فعلى هذا المذهب إذا تردّد إنسان بين عمليتين ، أو تردّد في عمل أيعمله أم يتركه ، فليحسب ما فيه من اللذائذ والآلام لشخصه ويوازن بينهما ، فما رجحت لذائذه فخير ، وينبغي فعله ، وما رجحت آلامه فشرّ وينبغي تركه ، وما تساوت فيه اللذائذ والآلام كان فيه مخيراً .

وقال أصحاب هذا المذهب : إن كل إنسان يجب أن يبحث وراء لذائذه هو وسعادته ، ويعمل ما يوصله إلى ذلك ، والعمل الذي يوصل إلى تلك الغاية أو يقربه منها يكون خيراً .

ومن أكبر زعماء هذا المذهب في العصور القديمة "أبيقور"^(٢) ويرى أن ليست تقاس الأعمال باللذات والآلام الوقتية فحسب ،

(١) يسمى هذا المذهب Egoistic Hedonism

(٢) أبيقور Epicurus فيلسوف يوناني (عاش من سنة ٣٤١ — ٢٧٠

قبل الميلاد) وقد أسس مدرسة في أثينا سنة ٣٠٦ ق م يعلم فيها مذهبه ، واستمرت أكثر من ستة قرون .

بل الواجب أن يرمى الانسان بنظره على جميع حياته ، ويحسب ما يستتبعه العمل من لذة وألم في الحياة ، فشرب الدواء المترسبب ألما ولكن لأنه قد يُذهب ألما أكبر منه — وهو ألم المرض — يكون خيرا — والعاقل ينبغي أن يرفض لذة حالة للحصول على لذة أكبر منها مؤجلة ، ومن أجل هذا فضل "أبيقور" اللذة العقلية على اللذة الجسمية ، فان اللذائذ الجسمية سريعة الزوال لا تعد شيئا اذا قيسَت بتلك اللذة الباقية — لذة العقل وتحصيل العلم — التي بها تطمئن النفس ، ومنها يتخذ الانسان حدة لحوادث الدهر ، وصروف الزمان .

وقال : إن خير اللذائذ هدو البال وطمأنينة النفس ، وأن سعادة الانسان تعتمد على حالته النفسية أكثر مما تعتمد على الظروف الخارجية ، فليس المال الكثير وإلحاح الكبر ونحو ذلك يعين على السعادة أكثر مما تعين صفات الانسان الخلقية والعقلية ، ومع ذلك فقد قال "أبيقور" : إن اللذائذ الجسمية الطاهرة ليست محزنة ، ولا مرذولة ، ولا ضرر على العاقل من أخذ حظه منها من غير إفراط .

وعلى هذا المذهب إنما كانت الفضائل فضائل لأنها تسبب للعامل لذة كبرى ، فالعفة مثلا فضيلة ، والفجور رذيلة ، لأنه

لو دقق في حساب ما يجده العفيف من اللذة في رضائه عن نفسه ،
وبعده عن الآلام التي ينتجها الفجور ، واحترام الناس له ، وثقتهم
به ، لوجد أنه يَرجح ما يجده الفاجر من لذة وقتية ، يتبعها ألم النفس ،
وفقد الثقة ، وتعريض الصنعة والمال والشرف للضياع ، وهكذا
القول في الصدق والكذب ، والأمانة والخيانة .

وقد غلط بعض الناس ففهموا أن مذهب "أبيقور" يدعو
إلى الانهماك في اللذات الجسمية والجري وراء الشهوات ، حتى
أطلقوا كلمة "أبيقوري" على الفاجر المنهمك في شهواته ، مع أن تعاليم
أبيقور بعيدة عن ذلك ، وقد ندد هو نفسه في بعض كتبه بمن
يفهم من قوله هذا الفهم السقيم .

[وفي العصور الحديثة قال بهذا المذهب "هوبز" الفيلسوف
الإنجليزي (١٥٨٨ - ١٦٧٩ م) وبني مذهبه الأخلاقي على أبحاث
نفسية ، فكان يرى أن الإنسان مخلوق وفي طبيعته حبه نفسه ،
والعمل لإسعادها ، وأن أساس أعماله الأثرة ، (حب الذات)
وليس يعمل عملاً إلا من أجل نفسه ، وليس حبه جاره أو صديقه
إلا ضرباً خفياً من ضروب حب النفس . نعم إنه قد يعمل الخير
لغيره ، ولكن الباعث الحقيقي له على عمله هو حبه نفسه ، وطلبه
اللذة لها أو دفع الألم عنها ، وكل ما يسمى "إيثاراً" أو نفعا للناس

ليس — بعد الفحص الدقيق — إلا نتيجة رغبة في منفعة شخصية يراد تحصيلها عاجلاً أو آجلاً، ومن أجل هذا قال: يجب أن نساير طبيعة الإنسان فلا نكلفه ما ليس من طبعه، بل نأمره أن يأتي من الأعمال ما فيه أكبر لذة له ويتجنب ما فيه أكبر ألم له.

وعيب هذا المذهب (مذهب السعادة الشخصية) أنه يجعل صاحبه أثراً (أنانياً) لا ينظر في أعماله إلا لنفسه، مات الناس أو عاشوا، انتفعوا أو تضرروا، إذا رغب في وصول منفعة للناس فانما ذلك لأنها تجر المنفعة إليه، وإذا تألم من شر نال أحداً فانما يكون لأن جزءاً من الشر يناله هو، وفي الناس في كل زمان قوم يسرون في حياتهم العملية على هذا المذهب وإن لم يسمعوا به ولم يعرفوا شيئاً عنه، تراهم في كل طبقة من طبقات الناس، في الأغنياء والصناع والعمال والموظفين والتجار، أولئك لا يلاحظون في أعمالهم إلا أنفسهم، ينظرون إلى غيرهم من الناس كما ينظرون إلى متاع يستخدمونه لمصلحتهم، عندهم الإنسانية والوطنية والتضحية ونحوها مخافات، إنما الفضيلة في نظرهم أن يحشوا وراء لذتهم وينشدوا مع الشاعر:

« إذا ميتٌ ظمأنا فلا نزل القطر »

وقد رد كثير من العلماء على «هوبز» فقالوا: إن في الإنسان عاطفة حب الناس بجانب عاطفة حبه النفس، وإن نفوسنا

. تهتّر عطفًا على الناس ، ورحمة بالمنكوبين ، وغضبًا على المجرمين ،
ويحنّ الوالدان على أولادهم حينما قد يصل الى حدّ أن يتمنوا أن
يقدّوهم بأنفسهم ، فليس من الصواب — إذن — أن يكون مقياس
الأخلاق لذة العامل وحده ، وأن تكليفنا له بمراعاة الناس والعمل
لخيرهم لا ينافي طبيعته .

وقد جاءت الأديان من نصرانية وإسلام فأوجبت التضحية
عند الحاجة ، وحبّت الى الناس الايثار والاحسان ، فكان في انتشار
هذه التعاليم ما طاق هذا المذهب عن الانتشار ، فإن الشرف
والتضحية والايثار لا تتفق مع الأثرة وحب النفس .

وقد آصّرُض على مذهب السعادة الشخصية هذا بجملة
اعتراضات :

(١) إذا كانت اللذة الشخصية هي المقياس فمن الصعب
إن لم يكن من المستحيل — عدّ الاحسان فضيلة ، مع إجماع
الناس على عدّه كذلك .

(٢) هذا المذهب يستلزم احتقار من ضحوا بلذتهم وحياتهم
لمنفعة الناس ، وتكريم من ضحى بسعادة الناس وحياتهم لمصلحته
هو — ولا قائل بهذا —

(ب) مذهب السعادة العامة^(١) أو مذهب المنفعة

هذا المذهب يقول : إن ما ينبغي أن يطلبه الإنسان في الحياة ليس سعادته الشخصية ، وإنما ينبغي أن يطلب أكبر سعادة للناس ، بل لكل حساس ، ولتوضيح ذلك نقول :

عند ما نريد الحكم على عمل بأنه خير أو شر يجب أن ننظر فيما ينتجه العمل من اللذائذ والآلام لا للعامل نفسه — كما يقول المذهب الأول — بل لكل الناس ، بل ولكل حيوان يتلذذ أو يتألم من هذا العمل ، ثم نجمع ما ينتجه العمل من اللذائذ وما ينتجه من الآلام^(٢) ، فإن رجحت لذاته آلامه فخير وإن رجحت آلامه لذاته فشر ، فإذا سئلت — مثلاً — هل يحسن أن نتعلم البنات مع البنين في مدارس واحدة أولاً ، فاحسب حساب ما ينتجه ذلك من الفوائد والمضار للأمة جميعها ، وقارن بينهما ، فما رجح فاحكم بمقتضاه ، وإذا سئلت هل من الحق أن تذبح الحيوان لتأكله فاحسب حساب ألم الحيوان من ذبحه ، وتلذذ الآكلين من أكله ، وما يستفيده

(١) يسمى هذا المذهب (Universalistic Hedonism)

أو (Utilitarianism)

(٢) مع ملاحظة أن الألم ليس إلا لذة سالبة .

الآكلون صحياً، وما تستفيده الأمة من صحة أبنائها وهكذا، وقارن بين اللذائذ والآلام، ثم احكم على العمل بأنه خير أو شرّ وهكذا .

وإذا خُيرت بين جملة أعمال فاحسب حساب ما ينتج كل من اللذائذ والآلام، فأياها زاد رجحان لذائذه على آلامه فهو الخير، وهو الذى ينبغى أن يعمل .

وسعادة الجميع يجب أن تكون مطمح نظر كل إنسان ، لا سعادته هو وحده — والفضائل إنما عدت فضائل لأنها تنتج للناس لذة أكثر من الآلام — فهي فضائل ولو آلمت بعض الأفراد، بل ولو آلمت العامل نفسه، وكذلك كانت الرذائل رذائل لأن آلامها للناس ترجح لذائذها، فهي رذائل ولو أفادت العامل نفسه .

فالصدق — مثلاً — إنما كان فضيلة لأنه يزيد سعادة المجتمع وبه يرقى ويبقى ، ذلك لأننا محتاجون فى الحياة الى طبيب يرشدنا الى ما فيه حفظ الصحة ، والى مهندسين نعتمد على أقوالهم فى بناء الجسور ونحوها ، والى كيمائى يبين لنا خواص الأجسام ، والى مدرّس يثقف عقول المتعلمين بما ينفعهم ، ولولا الصدق ما كان لنا أن نشق بأقوال هؤلاء ولا ننتفع بأرائهم ، فلما رأينا ما ينجم عنه

من السعادة للمجتمع حكمنا بأنه فضيلة ، وأوجبنا على الأفراد أن يصدقوا ، وإن كان في الصدق ألم لبعض الناس .

ورشوة القاضي — مثلا — إنما كانت رذيلة لأن القاضي إذا ارتشى أطلق سراح المجرم ، وهذا يشجعه هو وأمثاله على ارتكاب الجرائم ، لا اعتقاده أنه يستطيع الفرار من العقوبة بالرشوة ، وبذلك تكثر المظالم ، ويضيع كثير من الحقوق . وفي هذا آلام كثيرة للمجتمع ، فخرمت وإن انتفع بها القاضي المرتشى .

وهكذا الشأن في جميع الأعمال ، فإن أردت الحكم على عمل بأنه خير أو شر فابحث عما يجلبه من اللذائذ والآلام للمجتمع ، مع بعد النظر ، ودقة البحث ، وتجردك من الهوى ومن تحيزك لنفسك ، ثم وزن بين لذائذه وآلامه .

ووزن الأعمال بهذا الميزان بطيء ، لأنه يتطلب حسابا دقيقا ، ونظرا بعيدا ، إلا أن النتيجة موثوق بصحتها — على أن مما يُسهل عملية الوزن والمقياس أن أصول الفضائل والرذائل قد وزنت بهذا الميزان وحكم عليها بالخير أو الشر مثل الكرم فضيلة ، والبخل رذيلة ، والصدق خير ، والكذب شر ، فإن أردنا أن نحكم على جزئية من جزئياتها فلنرجع إلى أصل من تلك الأصول التي حكم

عليها، كأن يكون العمل من قبيل الصدق أو الكذب، ولا حاجة حينئذ الى هذا المقياس، وإنما نحتاج اليه فيما لا يرجع الى تلك الأصول، كالعادات التي تختلف الناس في استحسانها واستقباحتها، وكالمسائل التي لا ترجع الى هذه الأصول، فإن أدالك بمحك الدقيق الى أن آلام العمل أكثر من لذائذه. فاحكم بشره وإن حكم الناس عليه بالخير، وإن رأيت من الأعمال ما لا ضرر فيه أو ما آلامه أقل من لذائذه فاحكم بأنه خير وإن عده الناس بحرمة، ويسمى هذا المذهب « مذهب المنفعة » ومن أكبر دعائه الفيلسوف الانجليزي بنثام^(١) (١٧٤٨ - ١٨٣٢ م) وجون ستوارث ميل^(٢) (١٨٠٦ - ١٨٧٣ م) .

واللذة التي يريدونها أصحاب مذهب المنفعة تشمل اللذات الحسية والمعنوية، الجسمية والعقلية، بل قد صرحوا بأن اللذات

(١) بنثام Benthام عالم الانجليزي اشتهر ببحثه في الأخلاق والقانون، وهو من أكبر دعاة مذهب المنفعة وربما عد مؤسسه، وهو القائل بأن « مقياس الخير والشر أكبر لذة لأكثر عدد » وقد ألف في أصول القوانين كتابه الشهير (أصول القوانين) وطبقه على مذهب المنفعة وترجمه المرحوم أحمد فتحي باشا زغلول .

(٢) ميل Mill فيلسوف انجليزي كتب في المنطق والاقتصاد السياسي والسياسة وكتب رسالة في الحرية عرّبها طه افندي السباعي ورسالة في مذهب المنفعة ألفها سنة ١٨٦٣ وهو يعد من أكبر مؤسسي هذا المذهب .

النفسية أفضل من اللذات الجسمية — وكلما رقى الانسان طمح الى أشرف اللذات وأرقاها ، فكما أن سعادة الانسان تختلف عن سعادة الحيوان كذلك تختلف سعادة العاقل عن سعادة الجاهل ، واللذائذ الوضيعة سهلة المنال ولذلك كان حصول الجاهل على لذاته أيسر :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مُرادها الأجسام .

قالوا : والواجب ألا يبحث الانسان عن أكبر لذة بل عن أشرف لذة ، وعن خير أنواعها ، ولا يتيسر ذلك له إلا بأن يوسع فكره ، وأن يكون عنده من حب الخير للناس ما عنده لنفسه .

هذه هي خلاصة هذا المذهب ، وقد وجهت اليه اعتراضات كثيرة أهمها :

(١) أنا لو اتبعنا هذا المذهب وجب ألا نحكم على عمل بأنه خير أو شر إلا بعد أن نحسب كل ما ينشأ عن العمل من لذة وألم لكل إنسان ، ولكل كائن حساس ، وبعبارة أخرى نحسب حساب ما يناله الأقارب والأباعد من اللذائذ والآلام ، وما يناله الأحياء وأعقابهم وهكذا ، وإذا كان كذلك فمن الصعب الوقوف على نتائج العمل وحسابها ، فقد نرى عملاً ينفع أمتنا ويضر الأجانب ،

وقد ينفع معاصرنا ويضرّ الأجيال المستقبلية، والأجيال المستقبلية كثيرة العدد، من أجل هذا ونحوه يصعب الحساب ويدق البحث حتى لا نستطيع أن نحكم على بعض الأعمال بأنها خير أو شر، فمثلا هل تنفع الأمة الآن بما عندها من مناجم اذا كان ذلك يضرّ أبنائها؟ وهل تستدين الحكومة اذا خيف أن يكون الدين حملا ثقيلا على الخلف؟ كل ذلك من الصعب تصفية حسابه على هذا المذهب .

(٢) إن هذا المذهب يدور حول اللذة والألم ويتخذ لذائد الناس وآلامهم مقياسا، ولكننا نرى أن اللذة والألم تختلف باختلاف الأشخاص، فقد يرى أحد في عمل لذة كبيرة ويرى فيه آثر لذة أكبر أو أقل، فيرتب على ذلك اختلاف الناس في الحكم بالخير أو الشر، كما يرتب عليه ارتباك في حساب مقدار اللذة والألم، فمثلا قد يسمع جمع من الناس أصواتا موسيقية فيطرب منها بعضهم طربا كبيرا بينما نجد بجانبهم من لم يأبه لها ولم يفعل بها أي انفعال، فكيف بعد ذلك نستطيع تقدير اللذائد والآلام وتتخذها مقياسا تقاس به الأعمال .

(٣) إن هذا المذهب يجعل الناس باردين لا ينظرون في الأعمال الى جمالها وشرفها، والباعث الشريف الذي بعث عليها،

بل لا ينظرون إلا إلى لذاتها وآلامها ، فضلا عن أن القول بأن الحياة لا غاية لها إلا اللذة والألم يحط من شرف الانسان ، ولا يليق إلا بالعجماوات .

وقد أجاب أنصار هذا المذهب عن هذه الاعتراضات ، وطال بين الباحثين فيها الجدل ، مما لا يتسع له هذا المقام .

ومع هذا فإننا نستطيع أن نذكر هنا أن هذا المذهب من أكثر المذاهب انتشارا في العصور الحديثة ، وهو أرقى من مذهب السعادة الشخصية ، وكان له فضل كبير في إيقاظ العقول ، ومطالبتها أن تكون غير متحيزة في أحكامها ، فقد طلب من الشخص أن ينظر إلى لذائد الناس كما ينظر إلى لذاته هو ، وطالب المتشرعين ألا ينظروا عند تشريعهم إلى طبقة خاصة وأفراد معينة ، بل ينظروا إلى خير الناس كافة ، فما يعد جرائم يعاقب عليها القانون وما لا يعد إنما يلاحظ فيه لذائد المجموع وآلامه ، والعقوبات التي توضع بإزاء الجريمة يجب أن يلاحظ فيها أنها تأتي بلذائد للناس أكبر مما تسبب من الآلام وهكذا .

(٢) مذهب اللقانة^(١)
(البصيرة)

رأى قوم أن مذاهب السعادة أو مذاهب اللذة غير صحيحة، وأن اللذة وإن كانت أحيانا دليل الخير فإنها في كثير من الأحيان باعث على الشر، فلا يصح — بعد — أن تكون غاية نطلبها ونقيس الأعمال بها، وإنه لمن الضعة أن تُسير الإنسان في الحياة اللذة فقط وألا يُسير في أعماله إلا طلبا للذة أو تجنباً للألم، وألا ينبعث على فعل الخير إلا توقعه ما فيه من لذة، وألا يُجنب الشر إلا حسبانه ما فيه من ألم.

وقالوا : إن الحق أننا نعرف الخير والشر من غير أن نقيسه باللذة والألم، وأننا نحكم على الصدق والعدل والشجاعة بأنها خير وعلى أضدادها بأنها شر لا بالنظر إلى نتائجها وما يتبعها من نفع وضرر، ولكن لصفات ذاتية فيها، فالصدق خير في ذاته، والكذب شر في ذاته، من غير أن نحسب حساب ما ينتج عنهما.

(١) وضعت كلمة اللقانة ترجمة لكلمة (intuition) وأصل معنى الكلمة الإنجليزية النظر إلى الشيء، ثم أطلقوها في علم الأخلاق على الحاسة التي يدرك بها الخير والشر، وكلمة اللقانة من لقن الشيء إذا فهمه في سرعة، يقال : فني لقن أي سريع الفهم فاستعملناها في هذا المعنى.

وأن في كل انسان قوة غريزية باطنة، بها يميز بين الخير والشر
 يجرد النظر، مُنَحْنَاهَا كما منحنا العين لنبصر بها والأذن لنسمع بها،
 فكما نستطيع إذا نظرنا إلى شيء أن نقول : إنه أبيض أو أسود
 (من غير تعليل) وأنه طويل أو قصير، وإذا سمعنا صوت موسيقى
 أن نقول : إنه جميل أو قبيح ، كذلك نستطيع إذا رأينا عملا من
 الأعمال أن نقول : إنه خير أو شر .

وقد تختلف هذه القوة اختلافا قليلا باختلاف العصور
 والبيئات ، ولكنها متصلة في نفس كل إنسان ، فهو إذا نظر إلى
 شيء حصل عنده نوع من الإلهام يعترفه قيمته فيحكم عليه بأنه
 خير أو شر — ومن أجل هذا اتفق أكثر الناس على عد الصدق
 والكرم والشجاعة والعدل فضائل ، كما اتفقوا على عد أضدادها
 رذائل ، ألا ترى إلى الأطفال يحكمون على الكذب بأنه شر من غير
 أعمال فكر، ويحتقرون السارق، ويعتدون السرقة جريمة ولو لم يكن
 لهم من النظر البعيد ما يرون به الآلام التي تحقق بالمجتمع من وراء
 الكذب أو السرقة، وكذلك القبائل التي لم تأخذ بحظ من المدنية،
 وليس عندهم نظر دقيق يقيسون به ما ينتج من اللذائذ والآلام
 يكادون يتفقون على الفضائل والرذائل .

هذه القوة التي في طبائعنا نسميها «اللقانة» ونسمى المذهب القائل بها «مذهب اللقانة» .

وقد تصاب هذه القوة بالمرض فترى الخير شرًا والشر خيرا ، كما تصاب العين فلا تدرك بعض الألوان ، أو تحكم على الواحد بأنه اثنان ، وكما تصاب القوة العقلية فتحكم أحكاما خطأ ولكن العين السليمة والعقل السليم يصححان هذا الخطأ كذلك اللقانة قد تخطئ ولكن اللقانة السليمة تدرك هذا الخطأ وتصحيحه .

ويمتاز هذا المذهب عن مذهب السعادة بنوعيه بأنه :

(١) يرى الفضائل فضائل في جميع الظروف ، وفي كل زمان ومكان ، وليس كونها فضيلة تابعا لغاية إذا وصلت إليها كان خيرا وإن لم توصل كانت شرًا .

(٢) إن الفضائل أمور بديهية ليست في حاجة الى البرهنة على صحتها .

(٣) وأنها ليست محلا للشك ، فمن المحال أن نرى يوما ما أن ضدها هو الخير وأنها هي الشر .

وهذه القوة في طبيعة كل الأنواع البشرية ، العالى منها والسافل ، ولسنا نعى أنها على درجة واحدة من الرقى ، وإنما نعى

أنها طبيعية في الناس جميعا كحاسة السمع والنظر، وإن اختلفت قوة وضعفا، وأنها ككل مَلَكَات الانسان قابلة للترقية بالتربية .

وعلى الجملة فهذا المذهب يرى أن الانسان يجب أن يكون أرقى من أن تُسَيِّرَه اللذة والألم، وليس قانون الأخلاق وأوامره خاضعة لتأثير العمل، ولا لما فيه من اللذائذ والآلام، وإنما رُكِبَ في أنفسنا ضمير ينادي الانسان ويأمره بالخير وبالواجب ، ثم إن هذا الخير أو الواجب قد يُثمر لذة وسعادة، وقد تسير الانسان الى حده ما رغبته في اللذة وفراره من الألم ، ولكن هذا الضمير لا يخضع لذلك، بل قد يتطلب أحيانا أن يضحي باللذة والسعادة والحياة نفسها للواجب، والواجب واجب ولو منع لذة واستتبع ألما، والخير خير في ذاته مهما كلف من المشاق، وإنه لحط من كرامة الانسان أن يمسك دائما ميزانا يزن به كل عمل قبل أن يعمل ليرى ما ينتجه من لذائذ وآلام، فإن هذا عمل التجار . أما الأخلاق فيجب أن يكون أشرف من ذلك ، يصغي لصوت ضميره، ويسمع لما يوحى إليه من أوامر ونواه، وهذا هو ما يشرفه ويضعه في أعلى مكان يليق به .

ومن ذهب هذا المذهب طائفة من الفلاسفة الأقدمين يسمون (الرواقيين) وهم أتباع زينون . فيلسوف يوناني (٣٤٢ —

٢٧٠ ق ٠ م) كان يعلم أصحابه في رواق مزخرف في أثينا ، ومن ثم سمي أصحابه بالرواقيين (Stoics) وقد كان زينون معاصرا لأبيقور ومعارضاً له في تعاليمه . فبينما يرى أبيقور أن الغاية من الحياة هي الوصول الى أكبر لذة ممكنة للعامل ، وأنه يجب إحياء الشهوة وإروائها ، كان زينون يرى أنه يجب ضبط النفس وقمع الشهوات وعمل الواجب للواجب .

كان هؤلاء الرواقيون يرون أن اللذة ليست هي الغاية للإنسان ، ولا هي بالخير دائماً ، وإنما الغاية نيل الفضيلة لأنها فضيلة . وطلبوا من الناس أن يكفوا عن اتباع الشهوات وأن يمتزنوا أنفسهم على تحمل الآلام في سبيل الفضيلة .

والرواقي لا يجعل أكبر همه أن يكون غنياً ولا متلذذاً ، إنما أكبر همه أن يعيش حكماً فاضلاً ، في أي حال كان ، في فقر أو غنى ، وأن يستعمل ما حوله من الأشياء بخير استعمال ، ومثلوا الناس في الدنيا بالممثلين على مسرح التمثيل ، قالوا : إن منهم من يمثل الملك ، ومنهم من يمثل السائل الفقير ، ولسنا ننتهي على الأول لأنه مثل دور الملك ولسنا نعيب الثاني لأنه مثل دور الفقير ، إنما ننتهي على من أجاد دوره ملكاً أو فقيراً ونعيب من لم يجيد ملكاً أو فقيراً — كذلك الشأن في الحياة ، فالإنسان يجب أن يمدح

أو يذم لإجادته في عمله أو عدمها، لا لمنصبه الذي يشغله وماله الذي يملكه .

وضرب أحد رؤساء هذا المذهب وهو "إبيكتيتس" (٥٠ - ١١٥ م) مثلاً لذلك من لاعبي الكرة، قال : إنهم لا يلعبون للكرة نفسها ولا يهتمهم يملكها ولا من ملكها، وإنما يمدح اللاعب لأنه يعرف كيف يلعبها وكيف يجيد رميها - يريد بذلك أن الأشياء الخارجية لا قيمة لها في أنفسها، وإنما يمدح الإنسان على حسن استعمالها لا على ملكها .

والغريبيون الآن يطلقون « رواقى » على من اعتاد أن يقابل الأشياء بهدوء وطمأنينة على الرغم مما يحيط بها من خطر وآلام .
[ومن القائلين باللقانة في العصور الحديثة « كانت^(١) » فقد كان يرى « أن عقل الإنسان هو أساس الأخلاق . وليس الإنسان

(١) « كانت » فيلسوف ألماني عاش من سنة (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) وكان يعيش عيشة دقيقة منظمة ، فكان قيامه من نومه وشربه لقهوته وكتابته ومحاضراته وأكله ومشيه كل ذلك في أوقات محددة ، وكان جيرانه يعلمون أن الساعة يجب أن تكون الرابعة والنصف بالضبط حينما يرونها خارجاً من منزله في معطفه الرمادي ويده عصاه يتمشى بين أشجار الزيزفون في الشارع الذي سمي بعده « ممشى الفيلسوف » وكان يتمشى هذا الشارع ثمانى مرات راحة وحيثة كل يوم في كل فصول السنة ، وإذا جاء الجوع وأندر السحاب بالمطر ترى خادمه العجوز يتبعه متأبطاً مظلة كبيرة .

في حاجة الى أن يتعلم أن العمل خير أو شرّ بواسطة الملاحظة أو التجربة، أو قياس ما ينتج عنه من لذائذ وآلام، ولكن العقل بطبيعته يرينا الخير والشرّ، فإذا عرض أمامنا عمل ما فعقلنا يرشدنا إن كان خيرا أو شرا من غير عمليات حسابية، والعقل يأمرنا دائما أن نعمل ما نحب أن الناس يعملونه، فيأمرنا بالصدق لأننا نحب أن الناس يصدقون، ويتجنب الكذب لأننا نحب أن الناس لا يكذبون . ويجب أن نخضع لصوت العقل وأن نجعل إرادتنا تنفذ ما يأمر به وما ينهى عنه، وإذا جرينا على هذا المبدأ دائما ولو خالف ميولنا وشهواتنا فقد أدبنا ما علينا من الواجب وسرنا سيرا أخلاقيا » [

وقد اعترض على هذا المذهب (اللقانة)، القائل بوجود غريزة في الانسان يميز بها الخير من الشرّ، كالجاسة التي يميز بها بين الألوان والأصوات :

(١) : بأن الناس يختلفون في الحكم على الأشياء اختلافا كبيرا حتى في البدييات، ففي "سبارطة" كانت تعدّ السرقة عملا ممدوحا، ويعتدّ القتل في "داهوني" واجبا من الواجبات فكيف يقال بعد: إن الناس منحوا غريزة لإدراك الخير والشرّ؟ مع أنا نراهم لا يختلفون هذا الاختلاف فيما يدرك بالحواس، فلا يقول قوم

على الأسود أبيض، ولا يقول آخرون : إن الاثنين أكبر من الأربعة .

(٢) وبأنا نشاهد أنا في كثير من الأعمال نتوقف عند الحكم عليها بأنها خير أو شر، ونحس أننا نحتاج فيها الى إمعان النظر واستعمال الروية، ولو كان الحكم يرجع الى حاسة فينا ما احتجنا الى ذلك، كما لا نحتاج الى إمعان النظر في إدراك الأسود والأبيض والجميل والقبيح .

نظرة عامة الى هذه المذاهب

رأينا أن العلماء يختلفون فيما بينهم في معرفة المقياس الأخلاقي، وأن كل مذهب من المذاهب لم يسلم من اعتراضات ترد عليه، ولم يخل كذلك من وجهة نظر صحيحة .

وإذا ألقينا عليها الآن نظرة عامة رأينا أن من الخطأ الواضح الجري على مذهب السعادة الشخصية، لأن الانسان لا يعيش وحده في هذا العالم، وهو مضطر في معيشتة الى التعاون مع أبناء جنسه، فليس من الحق إذن أن يبحث فقط وراء سعادته هو — فضلاً عن أنا اذا رجعنا الى الطبيعة الانسانية رأيناها تدعو الى عمل الخير للناس كما تدعو لعمل الخير لنفسه، فكثير مما يعمله الآباء والأمهات

لأولادهم لا يعملونها لأنفسهم ، بل هم قد يبذلون أنفسهم لخير أولادهم ، وكأعمال الخيرين الذين يقصدون إلى إيصال الخير إلى الناس مهما نالهم من الأذى — بل نحن في أعمالنا اليومية نشعر بميل إلى إغاثة الملهوف ، وإتخاذ المشرف على الخطر ، ومساعدة المنكوبين ونحو ذلك ولولم يعد علينا من ذلك منفعة خاصة ، مما يدل على تأصل عاطفة الخير فينا ، وحب الناس ، وأن ليس شخصنا هو المحور الوحيد الذي تدور عليه الأخلاق .

وقد جاءت الأديان المختلفة لمحاربة " الأثرة " والتفاني في حب النفس ، وحببت إلى الناس " الإيثار " والعمل لخير الناس ، ووضعت المبادئ العامة لذلك نحو : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » و « أحب لأخيك ما تحب لنفسك » ومدح الله قوما بقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ — نعم إن الطبيعة ركبت فينا حب ذاتنا ولكنها ركبت فينا أيضا حب غيرنا ، وجعلت في استطاعتنا ألا نغلو في ذلك ، وأن نحب الخير لأنفسنا وللناس ، ومن شاء أن يكون عظيما فليحب الخير أكثر مما يحب نفسه ويتبعه حيث كان .

ويقول "سبنسر" : إن الواجب ألا نبالغ في الأثرة ولا في الإيثار ، لأننا إذا بالغنا في أيهما أضعنا المقصود منه ، فلو أن كل إنسان

يبحث عن لذة نفسه فقط لكان ذلك شرّ طريق لحصول الانسان على لذائذه الشخصية ، لاحتياج كل إنسان الى الآخرين ، فلو قصر كل إنسان في جمعية نظره على نفسه لتضرّر الجميع ، وكذلك الايثار ، فلو قصد كل انسان بكل عمل تقع الآخرين وأهمل نفسه لم يكن ذلك في مصلحة الناس ، لانه باهمال نفسه يضعف ويقعد عن عمل الخير للناس ، وليس يستطيع غيره أن يقوم بمضالحه هو ، لأنه أدري بها — والنتيجة التي وصل إليها "سبنسر" أنه يجب أن نوفق بين الأثرة والايثار ، وكلما رقيت أمة مالت لديها الأثرة والايثار الى الاتحاد وتكوين عنصر واحد — فالانسان في الجمعية الراقية لا تتعارض في نفسه الأثرة والايثار ، بل يرى خيره في حبه للناس ويرى نفسه عضوا من جسم ، فائدة العضو تفيد الجسم وفائدة الجسم تفيد العضو .

— إذن — لا يصح أن نتبع المذهب القائل : بأن المقياس سعادة الشخص — كذلك لا نرى من الحق اتباع مذهب السعادة العامة وإن كان أرقى مما قبله وأشرف ، لأن هذا المذهب يجعل الناس لا يحكمون على عمل إلا بعد حساب لذائذه وآلامه ، فهو يجعل الحكم الأخلاقي عملية حسابية ، والفضيلة ليست فضيلة في ذاتها ، وإنما هي فضيلة لأنها تنتج لذة أكبر ، وهذا يفقدها

ما فيها من جمال وتقديس ، واتباع هذا المذهب يجعل الناس جامدين ليس لديهم الشعور القوي نحو الفضيلة ، إنما ينظرون الى النتائج الجافة للأعمال ، فضلا عن أنه يترك تقدير ما ينتج عن العمل من اللذائذ والآلام الى الشخص نفسه ، والشخص عرضة لأن يخطئ في الحساب ، خصوصا وهذا المذهب يتطلب بعد النظر وحساب النتائج القريبة والبعيدة معا ، وكثيرا ما يخدع الانسان نفسه في حساب اللذائذ والآلام اذا رأى في العمل مصلحته الشخصية ، فيوهم نفسه أن في العمل منفعة عامة ، وبذلك يتعرض لخطأ شنيع .

ونحن أميل الى نوع من أنواع اللقانة ، وهو أن الانسان خُلِقَ وفي أعماق نفسه قوة تريه بعض الأعمال خيرا وأخرى شرا ، لا بالنظر الى ما ينتج عنها من لذائذ وآلام ولكن لأنها نفسها كذلك ، فهو يحس بطبعمه بفضيلة ورذيلة ، ويشعر أنه مأمور من نفسه بأن يعمل الفضيلة ويتجنب الرذيلة ، وهو مكلف أن يطيع هذا الأمر مهما كانت نتائجه ، وأن يضحى لذلك بكل اللذائذ التي يتوقعها ، فهو يرى الصديق فضيلة ، وشعوره أو عقله يريه ذلك كما تريه عينه الأسود أسود والأبيض أبيض ، وكما أنا لا نحكم على الأسود بأنه أسود نظرا لنتائجه فكذلك لا نحكم على الصديق بأنه

خير لنتائجها ، ولكن لأن نفسي ترى أنه فضيلة وأنى ملزم بالعمل على وفقه ، وإذا كذبت شككت لي محكة في باطن نفسي تحكم على بالإساءة ، وتوقع على عقوبة التأنيب — تلك طبيعتنا التي خلقنا عليها .

والقانون الأخلاقي الذي يرينا الخير والشر ويأمرنا وينهانا جزء من طبيعتنا ، وهو — وإن اختلف عند الناس حسب بيئتهم وتربيتهم فأساسه موجود فيهم ، في المتوحش والمتمدن ، وفي الراق وغير الراق — ففي باطن الانسان شعور بالواجب ، وأمر بعمله ، وعقوبة على مخالفته ، ومكافأة على طاعته ، وكل إنسان يشعر بذلك من غير أن ينتظر حساب ما في العمل من لذائذ وآلام ، وأمعن الناس في الإجماع وأشدتهم قسوة يضطرب إذا أجم، لا خوفا من العقاب فقط ولكن لأنه خالف أيضا قانون الأخلاق ، وكل إنسان مسئول أمام ضميره عن إطاعة هذا القانون الأخلاقي ، ومسئول كذلك أمام الله ، فقد ربط الله الثواب والعقاب بهذا القانون ، وجعل الجنة جزاء العدل والصدق والشجاعة ونحوها من الفضائل ، كما جعل النار عقابا لأضدادها من ظلم وكذب وجبن ، وأن هذا القانون الأخلاقي الذي في نفوس الناس هو الرابطة بينهم جميعا ، على أساسه يمدحون ويذمون ، ويكافئون ويعاقبون .

فتحن ندرك الخير والشر بطبعنا ، ونحس الواجب ، ويكلفنا ضميرنا أن نعمله من غير نظر إلى اللذائذ والآلام ، بل يأمرنا أحيانا أن نضحى باللذائذ والسعادة للخير والواجب .

هذا المذهب هو الذى يليق بشرف الإنسان ومزنته فى العالم ، فليس هو بهيمة يبحث عن لذته أولذة غيره ، إنما هو مخلوق راق يبحث عن الفضيلة حيث كانت ، ويأمره ضميره بالعمل بها ، وليس يعوقه عن الوصول إلى الدرجة الرفيعة الخلقية إلا تغاليه فى حب ذاته ، وإغضاؤه عن صوت الضمير إرضاء لشهواته ، والمثل الأعلى لإنسان يحب الخير للخير ، ويتطلب الفضيلة لأنها فضيلة ، ويؤدى الواجب لأنه واجب ، ويسمع صوت ضميره فى أداء ذلك دائما ، يجعل ذلك مبدأه فى حياته ، وقانونه الذى يسير عليه أبدا .

الفصل الخامس

الخير والشر

ما معنى الخير والشر؟ متى أسمى العمل خيرا ومتى أسميه شرا؟ ما هو الخير الأخير الذي نقصد إليه من أعمالنا؟ وبعبارة أخرى ما غاية الغايات التي ينبغي أن أسعى للوصول إليها؟ - إننا نقصد في حياتنا إلى أشياء كثيرة من مال أو جاه أو صحة أو منصب أو نحو ذلك فلم نقصد إليها؟ وهل هي مقصودة لنفسها أو لشيء وراءها يُعَدُّ هو الأساس؟ وإذا كان كذلك فما هو هذا الأساس الذي نسميه الخير الأخير أو غاية الغايات؟ هذا هو موضوع بحثنا في هذا الفصل .

وإنه لمن السهل استنتاج الأجوبة على هذه الأسئلة مما قرأناه في الفصل السابق، فإن كل مذهب من المذاهب الثلاثة الماضية يجيب بأجوبة تخالف ما يجيب به الآخر، تبعا لمسلكهم الذي سلكوه في مقياس الخير والشر .

فالمذهبان الأولان « مذهب السعادة الشخصية ومذهب السعادة العامة » قالا : ليس هناك عمل خير في ذاته ، ولا شر في ذاته ، وإنما العمل يُحْكَمُ عليه بأنه خير أو شر تبعاً لنتائجه ، فالعمل الذي تَرْجَحُ لذائذه آلامه خير ، والذي ترجح آلامه لذائذه شر ، والذي تتساوى لذائذه وآلامه لا خير ولا شر ، فإذا سئلت عن عمل أخير هو أم شر حسبت نتائجه لأصدر حكماً عليه ، والعمل في ذاته ليس خيراً ولا شراً ، بل العمل الواحد قد يحكم عليه في بعض الأحيان بأنه خير ، ويحكم عليه في أحيان أخرى بأنه شر ، وذلك لما يحيط به من ظروف تجعله ينتج لذائذ أكثر من الآلام أحياناً ، وآلاماً أكثر من اللذائذ أحياناً ، ويجب على الإنسان إذا خيّر بين أعمال أن يختار خيراً ، وخير الأعمال ما أنتج أكبر لذة وأقل ألم .

يتفق المذهبان الأولان في هذا القول وإن اختلفا في التفصيل ، فالأول يرى أنه عند الحكم بالخير والشر لا ننظر إلا إلى العامل ، والثاني ينظر إلى العالم أجمع كما سبق تفصيله .

والغاية الأخيرة التي يقصد إليها المذهبان هي « السعادة » فكل عمل قُرب منها كان خيراً ، وكل عمل أبعد عنها كان شراً ،

والمذهب الأول يقصد إلى سعادة العامل ، ويعتد ذلك هو الغاية الأخيرة للحياة ، وهو مذهب ظاهر البطلان كما قدمنا .

أما مذهب السعادة العامة فيرى أن الغاية الأخيرة التي ينبغي أن يسعى إليها الإنسان هي تحقيق السعادة للناس ، وأن العمل خير كلما قُرب من إسعاد الناس ، وشرّ كلما أبعد من ذلك ، وأن الإنسان الخير هو من راض نفسه على العمل لخير الناس ، وربط منفعته الشخصية بمنفعتهم ، وتألم من الأذى يصيبهم كما يتألم من الأذى يصيب نفسه ، ويجب لهم من الخير ما يجب لنفسه .

أما مذهب «اللقانة» فيرى أن هناك أشياء هي خير في ذاتها ، وهي التي اصطَلَحنا على تسميتها فضائل ، من صدق وعدل وشجاعة وعفة ونحوها ، وهناك أشياء شرّ في ذاتها وهي التي تسمى الرذائل من ظلم وكذب وجهن ونحوها ، ولأننا نحكم على هذه الأعمال بأنها خير أو شرّ تبعاً لنتائجها ، ولا في بعض الأحوال دون بعض ، وإنما نحكم عليها حكماً عاماً مطلقاً مهما كانت نتائجها ، فالصدق والعدل والعفة خير دائماً سواء أُنْتِجَت لذة أو ألم ، والكذب والظلم والشرّ شرّ دائماً سواء أُنْتِجَت لذة أو ألم ، والإنسان الخير مَنْ وَجّه إرادته للعمل حسب ما تهديه نفسه للخير ، والغاية الأخيرة التي ينبغي أن يسعى إليها هي أن يكون فاضلاً ، يتبع الفضيلة

حيث كانت، ويُلزم نفسه بالعمل على وفقها ولو تحمل في سبيل ذلك الآلام الجسام—وليست الغاية هي السعادة كما يقول المذهبان السابقان، ولكن الغاية أداء الواجب، والتمسك بالفضيلة، وإن ضحى لذلك باللذة والسعادة بل وبالحياة إذا دعت الحال، وليس للسعادة قيمة إذا قيسَت بالواجب، واللائق بشرف الإنسان أن يسمع لوصي الضمير من غير أن ينتظر حساب اللذائذ والآلام، وأن يفعل الواجب للواجب لا لشيء وراءه.

الفصل السَّادِسُ

علاقة الفرد بالمجتمع

نرى الانسان يصيب عضوا من أعضائه مرضٌ فيتألم له سائر
الجسد، ولا يقتصر الألم على العضو المريض، وقد ينتهي ذلك
بالموت، فتُسَلَب الأعضاء كلها ما فيها من حياة، فأعضاء الجسم
كلها متضامنة، يتأثر سائرها بما يصيب أحدها، وقد حكوا أن
معدة الإنسان قالت مرة: إني أهضم الغذاء كله، وأتعب في ذلك،
ولا يصيبني منه إلا القليل، وقال القاب: إني أوزع الدم على
سائر الجسد، ولا ينالني منه إلا قطرات، وقالت الرجل: إني
أسعى في الأرض شرقا وغربا لكسب القوت، مع أن حظي من
ذلك العناء قليل، وهكذا، فأضربت الأعضاء عن العمل، فبعد
مدة أحست المعدة بألم الجوع، وأحس القلب بالضعف، وأدرك
كل عضو أن خيره في أن يعمل له ولغيره، فعادت جميعها إلى
العمل.

على العكس من ذلك نرى المجموعة من الحجارة لا رابطة بين أفرادها ، ولا يُحسّ سائر الحجارة ما يقع على حجر منها ، فلو أننا أخذنا أحدها وحطمناه لم يتعد ذلك الأثر غيره .

فما كان من الصنف الأول فهو (جسم عضوى) كالإنسان والحيوان والنبات ، وما كان من الصنف الثانى — ككل مجموعة من أحجار وأخشاب ونحوها — سمي (جسما غير عضوى) .

فمن أى الصنفين الجمعية من الناس ، كالأُسرة والحزب والأمة؟
إننا بقليل من النظر نرى أنها (جسم عضوى) — ولناخذ مجتمعا صغيرا نحلله تحليلا دقيقا لنبين منه كيف يعتمد المجموع على أجزائه والأجزاء على المجموع ، ونتدرج فى النظر من المجتمع الصغير الى المجتمع الكبير .

فأصغر المجتمعات الأسرة ، وهى تتكون عادة من أب وأم وأولاد وأقرب الناس اليهم ، وفيها يعتمد كل فرد على الباقين ، الكل يخدم الفرد ، والفرد يخدم الكل ، فاعتماد الأولاد على الآباء فى ما كلهم وملبسهم ومسكنهم ونظافتهم وغير ذلك واضح جلى ، أما الآباء فقد يعتمدون على أولادهم اذا كبروا ومست الحاجة ، ولكن أهم من هذا وأكبر قيمة فى نظرهم ما يشعربه الآباء من

السعادة بما يرون من حب أبنائهم لهم ، وحنانهم اليهم ، وأن كلمة شكر صادرة من قلب أو عملا يدل على الاعتراف بالجميل من الابن لأبيه أو أمه ليُدخل على قلبهما من السرور ما لا يقدر .

وأنظر الى علاقة الأولاد أنفسهم بعضهم مع بعض ترأ أن كل طفل في الأسرة يؤثر في الباقين ويتأثر بهم ، ولو عاش الإنسان من مبدئه عيشة عزلة وانفراد لنشأ كالحیوان الأعجم ، فكل طفل يتعلم من إخوانه وأخواته المشاركة في العواطف ، فيشاركهم في فرحهم ، ويشعر بالحزن لحزنهم ، ويتعلم درس الأخذ والعطاء ، فيعرف أنه يجب أن يعطى كما يأخذ ، وأن يتنازل عن بعض ما يجب ، ويتعلم تبادل المعونة مع الآخرين .

وفي الأسرة يتجلى ما قدّمناه عن مميزات الجسم العضوى من أن الضرر الذى يصيب عضوا يتأثر به سائر الأعضاء ، فالولد سيئ الخلق يحرم الأسرة كلها سعادتها ، والأب السكير أو المقامر يؤثر سلوكه في معيشة أسرته فيضايقها بما يصرف من مال ، وما يتبع سكره أو لعبه من إهمال لشؤون بيته ، والأم الجاهلة يؤثر جهلها في حال الأسرة ، فكم من ولد أصابته آفة ، أو شوّهت خلقته عاهة أو أدركه الموت من جرّاء جهل أمه ، وهكذا .

كذلك الشأن في الجمعيات التي هي أكبر من الأسرة كالمدرسة، فطلبة المدرسة ومدرسوها وخرتيجوها جسم عضوي، يستطيع كل فرد منهم بعمله الشخصي أن يرفع من شأن المدرسة، أو يحط من قدرها، والصورة التي في أذهان الناس وقيمتها عندهم نتيجة سيرة طلبتها.

والحزب من الأحزاب يأتي فرد من أفراده عملا مجيدا فيمجد الحزب ويعلو مقامه، وكذا العكس، وقيمة الحزب أو المدرسة حاصل جمع ما يأتي به الأفراد من الأعمال.

والأمة أسرة كبيرة، فهي جسم عضوي تتحد في اللغة والدين غالبا، يحكمها قانون واحد، ويشترك أفرادها في المنافع والمضار، كالأمة المصرية، يفيض نيلها باعتدال فينتفع بذلك كل المصريين، وتحسن زراعة القطن فيها سنة وترتفع أثمانه فيكون القطر كله في رخاء، تاجر يبيع للفلاح ما يحتاجه ومؤجرون يسهل عليهم تحصيل إيجارتهم، وحكومة تحصل الخراج من غير عناء، وتيسر المعاملات بين الناس، فالملك يقبضهم أجور أملاكهم يعمرون ويبنون، فينتفع البناؤون والنجارون ومنهم ينتفع غيرهم وهكذا.

وأوضح المثل لاشتراك الأمة في المنافع والمضار المثل الجغرافية، نفزان أسوان — مثلا — بقعة من بقاع القطر المصري؛ يؤثر

في سعادة مصر جميعها ، فيصرف المياه بقدر حسب الحاجة اليها ، ولو تهدم ولم يؤد عمله لتضرر القطر المصري جميعه لا أسوان وحدها .

والمدارس العليا في القاهرة لم تُنشأ لمنفعة القاهرة فحسب ، بل أنشئت لمصلحة مصر كلها ، يتعلم فيها أبناءها من مختلف الأنحاء .

بل تأمل في كل طائفة من طوائف العمال كعمال السكك الحديدية وعجلات النقل تر أن أعمالهم مرتبطة ارتباطا وثيقا بأعمال غيرهم ، وأعتبر ذلك في أوقات اعتصابهم ، كيف يُعطل كثير من الأعمال ، ويتأذى كثير من الناس .

وعلى مثال ما قدّمنا يمكن القول بأن الأمة كلها يلحقها ضرر بليغ من وجود عدد كبير من أفرادها يشتغلون في معامل غير صحية ، ويسكنون في أزقة قذرة ، لا يصل اليها هواء نقيّ ، ولا تُطهر مساكنها أشعة الشمس ، فتضعف صحتهم ، وتقصر آجالهم ، ويكثر العجز فيهم ، فلا يستطيعون أداء أعمالهم حق أداء ، ويصبح كثير منهم عالة على الأمة ، يأكلون من عمل غيرهم ، فهم عضو مريض عاجز في جسم حيّ ، وكذلك الشأن في الأمة اذا كثرت فيها عدد الجاهلين أو السكيرين ، ومحال أن يكون جسم الأمة صحيحا وفيها يكثر المقامرون أو المدمنون .

وكما أن كل عضو في الجسم ينفع سائر الأعضاء وينتفع منها،
ويضر سائر الأعضاء ويتضرر منها، كذلك الحال في جسم الأمة،
فالمتعلمون مثلاً ينتفعون من الأمة بما لها وسعيها لتنتفع الأمة منهم
بعد علمهم وعملهم، وهكذا كل طائفة من طوائف العمال،
فالمعلمون والنجارون والمزارعون والتجار وغيرهم أعضاء يتكونون
جسم الأمة، وكل فرد عضو في أمتة، يؤثر فيها أثراً صالحاً أو سيئاً،
فالمدرس الصالح يث في روح تلاميذه أخلاقاً صالحة، ويجعلهم
أقرب إلى الخير، وغيرهم يقتدى بهم، والقاضي العادل يعدل بين
الناس فيأمنون على حقوقهم، ويشق ذو الحق بأنه سيصل إلى حقه
وينحاف المجرم من عقوبة الإجمام فيبتعد عنه، ويحذ العامل
في عمله لأنه يعلم أن نتيجة سعيه له، وأنه إن أغتصب حقه
فالقضاء كفيل برده إليه، وعلى العكس من ذلك القاضي المرتشى .
ولا يخلو إنسان من أثر في الأمة وإن لم تره عيوننا، كالشجرة
لها ظل وإن لم تدركه أبصارنا، فإذا ضم إليها شعرات كان الظل جلياً
واضحاً، وهذا الأثر يختلف تبعاً لاختلاف درجات الناس في الصلاح
والفساد، ومقياس رقي الأمة وانحطاطها بمجموع عمل أفرادها .

بل قد تجل للباحثين في الأيام الأخيرة أن الناس كلهم على
اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ودينهم جسم عضوي واحد،

فكل أمة تؤثر في الأمم الأخرى وتتأثر بها في صنائعها وعلومها وأخلاقها ، فليست أمة من الأمم غنية بمعادنها وصنائعها وعلومها عما حولها ، بل ترى أن الله قد قسم الخيرات على العالم ، فأمة غنية بالحبوب ولكنها في حاجة إلى المعادن ، وأخرى على العكس منها وهكذا ، وكل ينفع وينتفع .

الناس للناس من بدو وحاضرة

بعض لبعض — وإن لم يشعروا — خدام

اعتبر ذلك في أيام الحرب العظمى تر أن كل أمة — محايدة كانت أو محاربة — قد أصابها الضنك بسبب حاجتها إلى أشياء كانت تجلبها من الأمم الأخرى ، فأصبح نيلها عسيرا .

وقد جرّت هذه الحقيقة — أعني اعتبار الجنس البشري جميعه جسما واحدا وكل أمة عضوا من أعضائه — بعض الباحثين إلى النظر في الحروب التي تقع بين الأمم ، وذهبوا إلى أنها ليست بسائغة ، كما لا يسوغ أن يعمل عضو في جسم على إضعاف عضو آخر ، وتمنوا أن لو زال مثار الخلاف بين الأمم حتى لا يكون مساعا للحرب ، واقترحوا لذلك إنشاء محكمة تحكم بين الأمم ، كما تحكم المحاكم بين الأفراد المتنازعين ، وهذه هي المسماة ”بعضبة الأمم“ وقال هؤلاء : إن الخلاف الطبيعي بين الأمم في الأخلاق والعادات

لا يحيل إمكان التآلف بينها، كما أن الاختلاف بين أفراد الأسرة بالذكورة والأنوثة والشدة واللين، لم يمنع من توحيدها واعتبارها جسماً واحداً، ولكنهم مع هذا دعوا إلى "الوطنية" والمحافظة على "القومية"، ما دامت الأمم الأخرى تدعو إليها، لأن انعدام "الوطنية" في أمة مع بقائها في الأمم الأخرى مؤذنة بزوال تلك الأمة.

وقد تقدم الناس في فهم هذه "الأخوية العامة" فاشتدت الرابطة بين الأمم، وكثرت انتفاع بعضها ببعض، فامتدت السكك الحديدية بين أمة وأخرى، وعبرت البواخر البحار، فارتبطت الأمم برّاً وبحراً، وعقدت محالفات كثيرة بين الأمم المختلفة لمصلحة الناس، كالاتفاق العام على البريد والتلغراف والسكك الحديدية، ومن الأدلة على ذلك ما نراه من ميل كثير من الناس إلى توحيد المقاييس والموازين في العالم جميعه، وعقد مؤتمرات عامة يُمثل فيها الأمم المختلفة للبحث في شؤون شتى علمية وصحية، إلى كثير من أمثال ذلك.

هذا هو شأن المجتمعات والأفراد، وكل فرد فيها عضو من أعضائها، ولا يخلو إنسان من ارتباطه بمجتمعات كثيرة، فكل إنسان عضو في أسرة، وفي مدينة، أو قرية، وفي أمة، وفي العالم بأسره.

ومن المجتمع يستمد الفرد كل شيء من مأكل وملبس ومسكن وعلم وخلق، وأوجرد الإنسان من كل شيء ناله من المجتمع ما بقي له شيء، فجسمه وعقله وخلقُه منحة من منح المجتمع .

وكما أن العضو إذا انفصل من الجسم مات ولم تعد له حياة كآل يد تفارق الجسم، والورقة تفارق الشجرة، فكذلك الإنسان إذا انفصل من مجتمعه أدركه الفناء، ولم تكن له قيمة، لأن أعمال الإنسان وأغراضه وعاداته لا تقوم إلا بالنظر إلى المجتمع، فليس الصدق خيرا ولا الكذب شرا إلا لإنسان يعيش في مجتمع، ولولا ذلك لم يكن أحدهما خيرا والآخر شرا .

الفصل السابع

الحق والواجب — معنى الحق — أساسه —
 ما للفرد من الحقوق نحو غيره من الأفراد

معنى الحق والواجب — ما للإنسان يسمى "حقاً"،
 وما عليه يسمى "واجباً"، فإذا كان لى مائة جنيه على آخر يقال : إن
 لى حقاً أن آخذ منه مائة جنيه ، وواجب عليه أن يدفع لى هذا
 المبلغ .

والحق والواجب متلازمان ، فمتى كان لشخص حق كان هناك
 واجب ، بل الواقع أن كل حق يستلزم واجبين : واجباً على الناس
 أن يحترموا حق ذى الحق ولا يتعترضوا له أثناء فعله ، وواجباً على
 ذى الحق نفسه ، وهو أن يستعمل حقه فى خيره وخير الناس ،
 فمثلاً إذا كان لى بيت فهو حق لى ، وذلك يستلزم واجبين : واجباً
 على الناس ألا يتعدوا على هذا البيت بضرر ، وأن يحترموا حق
 فى ملكيته ، وواجباً على وهو أن أستعمل البيت فى خيرى وخير الناس ،

فإذا أشعلت فيه نارا أريد إحراقه أو آذيت الناس بإيجاره لعمل مقلق للراحة لم أكن أذيت ماوجب علىّ، وهكذا .

ولكن جهة التنفيذ في الواجبين ليست واحدة — فالذى ينفذ الواجب الأول هو القانون الوضعى — غالبا — فإذا تعدى أحد على بيتى فغضبه منى كان القانون الوضعى هو الذى يحمينى، فاستطيع أن أرفع الأمر الى المحاكم، والقاضى يُلْزِمُه بمرامة حقى وينفذ ما يجب عليه، أما الواجب الثانى — وهو الواجب علىّ فى استعمال حقى على أحسن وجه — فليس الذى ينفذه هو القانون الوضعى — غالبا — وإنما يأمر به القانون الأخلاقى، ويترك تنفيذه الى ذى الحق نفسه، والى رأى العام، فلو أنى هدمت بيتى وهو عامر، أو أتلفت هندسته، أو تركته مهجورا لا أُسْكِنُه ولا أُسْكِنُه لم يتدخل القانون الوضعى فى ذلك، وإنما يتدخل القانون الأخلاقى، فيأمرنى أن أعمل الواجب علىّ من استعمال بيتى لخيرى وخير الناس، ويلومنى اذا لم أتبع ذلك، وكذلك يلومنى رأى العام، فإذا قال القانون الوضعى: «لكل مالك أن يتصرف فى ملكه كيف يشاء» فإن الأخلاق تقول: «ليس لمالك أن يتصرف فى ملكه إلا بما فيه الخير له وللناس» .

أساس الحق والواجب — لم كان لي حقوق وعلى واجبات؟ يقولون مثلاً: إن لي حقاً في أن أتعلم، وحقاً في أن أكون حراً، وأن على واجبا أن أرفع حقوق الناس، وأن أؤدى ما على من الواجبات، فما الذى رتب هذه الحقوق وهذه الواجبات؟ وهلا يمكن الناس أن يعيشوا من غير حقوق وواجبات؟ .

أساس الحقوق والواجبات هو المعيشة الاجتماعية، فالارتباط الوثيق بين الفرد ومجتمعه الذى شرحناه فى الفصل السابق هو أساس فكرة الحق والواجب، فلو أن الفرد يعيش وحده ما كان هناك معنى لى ولا واجب، بل كان له أن يفعل ما يشاء بلا قيد ولا شرط، ولكنه لما كان عضواً فى مجتمع، وكان المجتمع ككل جسم حي لا بد من أعمال للمحافظة عليه، وإذا لم تعمل تعرض المجتمع للخطر والفناء أو التدهور نشأت من ذلك فكرة الحق والواجب، فالأشياء الضرورية لبقاء المجتمع كالمحافظة على الأرواح والأموال سمينها حقوقاً للأفراد فى المرتبة الأولى وأوجبنا على كل فرد أن يحترمها، وأوقعنا العقوبات الشديدة على من ينتهك حرمتها، صونا للمجتمع من الفناء، والأشياء التى هى سبب فى رفاهية المجتمع

وكاله كالتعليم جعلناها حقوقا في المرتبة الثانية وأوجبناها وجوبا
أقل من المسائل الأولى .

ولنذكر الآن بعض تلك الحقوق وما يجب بإزائها .

(١) حق الحياة

لكل إنسان الحق أن يحيا، ولكن لما كانت معيشة الإنسان
معيشة اجتماعية وكانت الحقوق التي له مستفادة من قبل المجتمع
كان عدلا أن يضحى الفرد بحياته لحفظ حياة المجتمع اذا اقتضى
الحال ذلك، كما اذا هُوِيَتْ الأمة من أمة أخرى قصد الاستيلاء
عليها فتُجَنَّد من أبنائها من يدافع عنها، وهذه أحوال نادرة، أما فيما
عداها فحق الحياة حق مقدس لا يسمح به لأى شيء آخر .

وهذا الحق مع وضوحه قد جهلته بعض الأمم في بداوتها ،
فبعض قبائل العرب في جاهليتها كانت تتد البنات خوفا من العار،
وتتد الأولاد خشية الفقر، وكثير من الأمم كانت تقتل أسرى
الحرب متى ظفرت بهم — وفي بعض الأمم الآخذة بحظ وافر من
المدنية لا يزال حق الحياة عندهم معترضا للخطر أحيانا، كما هو الشأن
عند الأمم التي تبيع المبارزة، ولو أن الناس قدروا الحياة حق قدرها
وتقدموا في فهم حقها لما تحاربوا، وحق الحياة لا يمكن أن يوفّر

لكل أفراد الأمة ما لم تتوافر لهم وسائل المحافظة على الحياة ،
وذلك بسهر الحكومة على المحافظة على الأمن والقبض على المجرمين
ونحو ذلك ، كما أنه لا يمكن أن يوفر حق الحياة إلا بتوفير وسائل
المعيشة ، حتى لا تقع الأمة في مجاعة ، أو يكثر فيها العاطلون الذين
لا يجدون ما يقيم أودهم ، ويحفظ حياتهم .

وحق الحياة ككل الحقوق يستلزم واجبين : واجبا على ذى
الحق وهو أن يحفظ حياته ، ويقضيها في أحسن الوجوه التى
تنفع نفسه والناس ، فالمتحر مضيع لحقه فى الحياة ، مغل بالواجب
عليه ، كذلك واجب على الناس أن يحترموا هذا الحق للفرد فلا يتعدوا
عليه — وإذا كان هذا الحق أقدس الحقوق كان من تعدى عليه
بقتل أو نحوه مستوجبا أشد العقوبات ، وربما كان من الحق أن
نسلبه أيضا حقه فى الحياة .

(٢) حق الحرية

كلمة الحرية من الكلمات الغامضة التى تستعمل فى معان
مختلفة ، ولذلك نبدأ بتحديد ها .

الحرية المطلقة هى « أن يريد الانسان ويعمل ما يريد من
غير أن يكون لأى شىء آخر سلطان على ارادته أو عمله » وهى

بهذا المعنى لا تكون إلا لله ، فليس ثمة من لا تتأثر ارادته بأى مؤثر خارجى وعنده من القوة ما ينفذ به ما يريد إلا هو ، واذ كنا إنما نبحث عن حرية الانسان لم يكن هذا المعنى المطلق بصالح إنما يصلح للناس حرية مقيدة ، وقد جاء تعريفها فى "إعلان حقوق الانسان" الصادر فى فرنسا سنة ١٧٨٩ م بأنها "القدرة على عمل كل شىء لا يضر بالغير" وقريب منه ما قاله "هربرت سبنسر" : كل إنسان حر أن يفعل ما يريد ، بشرط ألا يتعدى على ما لغيره من مثل حرّيته " ومعنى قوله : إن الناس كلهم متساوون فى حق الحرية ، ولكل إنسان الحق أن يعمل ما يريد ما لم ينقص ذلك من حرية الآخرين .

وعرفها بعض الأخلاقيين "بأن يكون للانسان الحق فى ترقية نفسه بما يشاء من غير أن يتدخل أحد فى شؤونه ، إلا اذا وجدت ضرورة تدعو الى ذلك ، أو كان التدخل لترقية من يتدخل فى شؤونه ، كما فى الحجر على السفیه" وعلى الجملة إن هذا الحق يتطلب أن يعامل كل فرد معاملة إنسان لا معاملة متاع ، ومن أجل هذا حرم الرق والاستبداد والتسخير ونحوها مما يعامل فيه الانسان كأنه متاع يستخدم لغاية آخر .

ولفهم الحرية فهما صحيحا يجب أن نذكر أنواعها، ثم نبين كل نوع على حدته، فأهّم ما نستعمل فيه الحرية ما يأتي :

(١) الحرية التي هي ضدّ الاسترقاق، فيقال حرّ ورقيق .

(٢) حرية الأمم، ويعنون بها الاستقلال وعدم الخضوع لحكم الأجنبي .

(٣) الحرية المدنية، وهي أن يكون الشخص آمنا من التعدي عليه وعلى ملكه ظلما، وهذه الحرية تشمل حرية الرأي وحرية الخطابة وحرية التصرف في الملك الخ .

(٤) الحرية السياسية وهي أن يكون للانسان الحق في أن يأخذ نصيبا في حكومة بلاده بالتصويت في الانتخابات ونحو ذلك

النوع الأول — لا يحتاج هذا النوع الى شرح طويل، فالفرق بين الحرّ والرقيق واضح جليّ، وقد كان الاسترقاق فاشيا في العصور الماضية، ولم يكن يُنظر اليه بعين المقت التي ينظر اليه بها اليوم، حتى إن أرسطو — أكبر فلاسفة اليونان — كان يرى أن بعض الناس بفطرته غير قادر على أن يتصرّف في شؤون نفسه فخير له أن يكون رقيقا يدبر غيره أمره — وفي العصور

الحديث ساد القول بأن الحرية حق طبيعي لكل انسان ، وبعبارة أخرى حق منحه الله للانسان منذ ولد .

وانما منح الناس جميعا الحرية لسببين : أولهما أن حب الحرية متأصل في نفس كل انسان ، فمن الظلم أن نسلبه هذه الرغبة ، وثانيهما أن الانسان لا يستطيع أن يقرر شؤونه بنفسه إلا اذا كان حراً ، أى أنه لا يمكن أن يكون مسئولاً إلا اذا كان حراً ، أعني أنه لا يكون إنساناً إلا اذا كان حراً .

قد ينعم بعض الناس في ظل العبودية أكثر مما ينعمون في ظل الحرية ، وبعض الأرقاء كانوا أسعد حالا من بعض العمال اليوم ، ولكن قل أنت يرضى هؤلاء العمال بحريتهم بديلاً — قد تكون الحرية مدرسة شاقة متعبة ، ولكنها المدرسة الوحيدة التي يتعلم فيها الانسان أن يكون إنساناً حقاً .

النوع الثاني حرية الأمم أى استقلالها — والأمة تحب أن تمتع بحريتها وتحكم نفسها ، كما يحب الفرد أن يكون سيد نفسه ، ويُحس الضعة والمذلة اذا حكمها غيرها .

فان قلت : ما الفائدة التي تعود على الأمة من استقلالها ، قلنا : إن فائدتها من ذلك كفايدة من يُفك الحجر عنه ، فإننا اذا منحنا

المحجور عليه حرية التصرف فقد يخطئ، ولكن هذا هو خير طريق ليعتنى بشؤونه وليكون مسئولا، وانه اذا كان حراً التصرف زاد طموحه لتكميل نفسه، وشعر بأنه إنسان حقا، وكذلك الشأن في الأمم، اذا منحت استقلالها شعرت بمسئوليتها، وطمحت ببصرها لتكون خيرا مما هي، وأعتقدت أن نتيجة مجهودها لها لا غيرها فضاعف ذلك في جدها

ووجه آخر، وهو أن الأمة اذا كانت محكومة بأخرى فكثيرا ما يحدث أن تتعارض مصالح الأمتين فيحدث الاحتكاك ويكثر التصادم وفي ذلك ما يعوق الأمة عن التقدم .

وعلى الجملة فلا تُحس الأمة شخصيتها إلا اذا نالت حريتها، ولا تنهض وتجد في نيل كمالها إلا اذا كانت تدير شؤون نفسها بنفسها، وهذا النوع من الحرية هو الخطوة الأولى في كثير من الأحيان لتحقيق الأنواع الأخرى كالحرية المدنية والسياسية

النوع الثالث الحرية المدنية — لا يتمتع الفرد بهذا النوع من الحرية إلا اذا كان في أمة قد بلغت حضا من المدنية، فالأثم المتبدية — حيث لا يأمن الفرد فيها على نفسه من القتل أو السرقة أو مصادرة أملاكه — لا يتمتع بالحرية المدنية، فإذا تقدم

الناس في الحضارة أصبح لكل فرد في الأمة الحق أن يدافع عن نفسه أمام القضاء، وأمن أن يُسَجَّن أو يُحبَس أو يعاقب أية عقوبة إلا إذا حكم عليه بمقتضى قانون البلاد، ولا يصح أن يُتعدى عليه في غير هذه الحالة، ولا أن يكون ضحية لطمع كبير، أو انتقام حاكم كما كان الشأن قبل رقي الانسان، وهذا النوع من الحرية يشمل :

حرية الرأي — ونعني بها أن يكون كل إنسان حراً في الحكم على الأشياء بما يعتقد أنه الحق، فليس الاجتهاد والتفكير والحكم على الاشياء بأنها صواب أو خطأ من حق طائفة خاصة، بل من حق كل فرد أن يقول أو يكتب ما يراه صواباً — في أدب من القول، بعد أن يتثبت منه ويقوم عنده البرهان على صحته — وإن خالف العظماء والعلماء، ذلك لأنه لا يعرف أحد من الناس كل الحق، ونحن اذا منعنا الناس من أن يقولوا ما يعتقدون حُرِّمنا ما قد يكون في قلوبهم من رأى صائب أو فكرة حقة، ولهذا يجب أن نسمح لكل فرد أن يكتب أو يقول ما يراه حقاً ثم نتطاحن الآراء صحيحها وفاسدها حتى يتغلب الحق ويتجلى للناس .

(النوع الرابع) الحرية السياسية — ونعني بها أن يكون للانسان نصيب في حكم بلاده، فالأمة اذا كان ممثلوها هم

المشرعين لها والمديرين لشؤونها قيل : إنها تعمل حسب ارادتها ، وهذا هو معنى الحرية ، أما ان كان يشرع لها ويأمرها من لم يمثلها لم تكن تعمل حسب ارادتها بل هى مضطرة مجبرة ، والجبر ينافى الحرية .

وقد ثبت هذا الحق «حق الحرية» للانسان لأنه لا يستطيع أن يكمل نفسه ويرقى أخلاقه ويصل الى غايته الا اذا كان حراً .



وقد تأخر الناس في فهم هذا الحق حتى بعد أن فهموا حق الحياة ، فقد ظل الرق فاشيا بعد أن كف الناس عن قتل أسرى الحرب وواد البنات ، ولم يبطل الرق الا في القرن الماضى ، والآن بعد أن ألغى الرق لم يتمتع العالم بأنواع الحرية الأخرى كما ينبغي ، فأمم عدّة لا تزال تجاهد لنيل استقلالها ، وكذلك النوعان الآخران من الحرية أعنى الحرية المدنية والسياسية فهما ، مع اختلاف الأمم في درجة التمتع بهما لم يبلغا الدرجة القصوى المنشودة لهما .

وهذا الحق أيضا يستلزم واجبين : واجبا على الناس والحكومات أن يحترموا حق الفرد في الحرية ، فلا يتدخلوا في شؤونه إلا للصالح العامة وعند الضرورة ، فالحكومات لا تقوم بواجبها

إن كانت تحجر على الصحف والكتب أن تطبع حتى يميزها الرقيب إلا في أحوال استثنائية كحالة الحرب، والأفراد لا يؤدون واجبهم إذا كانوا لا يسمحون لخطيب أن يخطب إلا إذا كان يرى رأيهم، ويقول بلسانهم، ولا يبيحون لكاتب أن يكتب ولا صحيفة أن تنشر إلا ما يوافق مذهبهم، انما يؤدون واجبهم يوم يكون القول حراً، والنقد المؤدب حراً، والحجة وحدها هي وسيلة الاقناع.

يجب أن يستشعر المرء أنه حر، وأن الناس أيضاً أحرار، فكما أن له حقاً أن يكون حراً عليه واجب أن يحترم حرية الآخرين، يجب أن ينضم إلى شعور الشخص بأنه حر وأنه سيد نفسه شعور بأنه ليس يعيش وحده، ولكنه عضو في جمعية، وأنه مسئول عن حرية هذه الجمعية، ومن مميزات الأمم الراقية نماء هذين الشعورين في أفرادها وتعادهما، أعنى الشعور بالحرية والشعور بالمسئولية — والواجب الآخر واجب على ذي الحق نفسه وهو أن يستعمل حريته في خيره وخير الناس، ومن أساء استعمالها كان بخليقا أن يسلبها، قال ملتن: «من يتعشق الحرية يجب أن يكون قبل طيباً حكيماً» فليست الحرية تشرى أو تمنح، ولكن تكسب بالعمل لنيلها وحسن الاستعداد لها.

(٣) حق الملك

يكاد يكون حق الملك جزءا مكملًا لحق الحرية ، فان الانسان لا يستطيع أن يرقى نفسه كما يشاء إلا بملك الوسائل .

وقد دعا الى هذا الملك أن وسائل الحياة لا تكفى لسد رغبات كل الناس ، فتراحوا على طلبها ، ودعاهم حب الذات الى الاستئثار بها فكان الملك .

الملك انحصار الملك العام — وإنا بالملاحظة نرى شكلين للملك ، فتارة يكون ملكا خاصا بملك شخص كتابا أو منزلا أو ثيابا ، وتارة يكون عاما كالسكك الحديدية والمتاحف ودار الكتب ودار الآثار .

وإنما جعلت بعض الأشياء ملكا خاصا وأخرى ملكا عاما لأننا رأينا أن الملك انحصار أدعى الى عدم التبذير وإلى العناية ، وهو في هذين يفضل الملك العام ، ورأينا الملك العام يحمى من الاختكار ومن استبداد المالك .

فالملك انحصار خير عند ما تكون ملكيته أدعى الى العناية والتبذير ، والملك العام خير عند ما تكون ملكيته أئق للاحتكار

واستبداد فرد أو أفراد قليلين بها ، فالثياب التي يلبسها الانسان وما يأكله والمسكن الذي يسكنه خير أن تكون ملكا خاصا له ، لأنه بها أكثر عناية ، ولا خوف فيها من احتكار واستبداد ، أما المتحف أو الشارع فلو كان في ملك فرد لاستبدت بالناس وفرض عليهم من الرسوم ما يضر بهم فكان من الخير أن يكون ملكا عاما .

وهناك أشياء كان من الواضح فيها أن تكون ملكا عاما لانطباقها على القاعدة المتقدمة في الملك العام ولكن أعطيت للشركات تديرها . كشركة المياه وشركة النور ، ومنعنا لاستبدادها بالأمة عقدت الحكومة معها شروطا تجعل حدًا أقصى لثمن الوحدات منها .

وللاحظ أن الأشياء التي نقول : إنها ملك عام هي التي يعبر عنها بأملاك الحكومة ، ذلك لأن الحكومة نائبة عن الأمة ، فهي تدير هذه الأملاك وتصرف فيها نيابة عن الأمة .

وحق الملك يستلزم واجبين : واجبا على الناس وهو أن يحترموا ملك المالك فلا يتعدوا عليه بسرقة أو غصب أو نحو ذلك ، وواجبا على المالك نفسه وهو أن يستعمل ما يملك أحسن استعمال .

وإذا كان من الناس من هم أحوج منا الى ما نملكه وكانوا محتاجين اليه لاستعماله في حاجة أكثر ضرورة ، من حاجتنا ونجب

علينا أن نبيع لهم استعماله ، فاذا كنا نملك عجلة أو سيارة وكان جار لنا مريضاً واحتيج إلى العجلة للاسراع في إحضار الطبيب وجب علينا أن نبيع لهم استعمالها ، لأن استعمالها في حفظ الحياة يفضل أى استعمال آخر كالترقوض ، ولو أن بيتنا لغنى احتيج إليه في أيام الحرب ليكون مستشفى يعالج فيه الجرحى الذين دافعوا عن أوطانهم وجب على المالك أن يبيع لهم ذلك ، وواجب أن تعطف على البائس الفقير الذى لا يجد ما يستد رمله فتمنحه شيئاً مما زاد عن حاجتك ، وقد صدق الشاعر إذ يقول :

وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحْنٍ إِلَى الْقَدْرِ

وكل إنسان منا عند اصطدام قطارين أو ترامين واجب عليه أن يقدم ما يستطيع من منديل وعصا ودواء لاسعاف المنكوبين ، لأن هذا خير ما يستعمل فيه المتاع وهكذا .

(٤) حق التربي

لكل إنسان الحق أن يتربي ويتعلم حسب كفاءته واستعداده ، قلنا الحق أن يتعلم القراءة والكتابة وأن يرقى ملكاته في الفنون والعلوم حسب ما يسمح له استعداده ، وأن يتهدب بأنواع التهذيب المختلفة . .

ولإنما كان له هذا الحق لأن التربي وسيلة من وسائل الحرية، ومن وسائل الحياة الراقية، فالجهل اذا فشا في أمة أثرفها أثرا سيئا في جميع مرافقها سواء في ذلك الشؤون الاقتصادية والصحية والاجتماعية والسياسية، فالمتعلم يستطيع أن يتكسب ويدير أمور معيشته وينظم حياته أكثر مما يستطيع الجاهل، والأسرة المتعلمة أقدر على مراعاة الأمور الصحية من الأسرة الجاهلة، واذا كثر الجهل في أمة كثر فيها الفقر والتشرد والإجرام، والمتعلمون أصوب حكما اذا انتخبوا من ينوب عنهم، وأصدق نظرا وأقوم رأيا اذا انتخبوا، والمرأة المتعلمة أقدر على تربية أبنائها وتنظيم بيتها وإدارة شؤونها وهكذا، والعلم باب للأخلاق القويمة والدين الصحيح، به يشعر الإنسان بنفسه، وبه يدرك الحياة العالية، وبه ترقى شخصيته.

وواجب على الحكومات إزاء هذا الحق إعداد الوسائل لكل فرد من افراد الأمة لينال درجة من التربية تؤهله لأن يكون عضوا صالحا في الجمعية يعرف حقوقه وواجباته، ويجب ألا يحول بينها وبين القيام به فقر الأب أو نحو ذلك، وبعبارة أخرى يجب أن يجد كل طفل فقير مكانا يتعلم فيه، وأن يكون التعليم يؤهل الناشئين لأن يفتحوا لهم طريقا في الحياة حسب كفاءتهم وميولهم، ويبعث فيهم الرغبة في أن يعيشوا عيشة أخلاقية صالحة، وعليها

إعداد المعلمين الصالحين للقيام بهذه المهمة، وواجب على الأغنياء والجمعيات مساعدة الحكومات في نشر التعليم لنيل هذا الغرض .

وهذا الحق لم تقوّمه الأمم التقويم الذي يستحقه حتى أعلى الأمم حضارة، وهم يسرون بجدّ في سبيل تحقيقه، نعم إن أكثر الأمم المتمدنة خطت خطوات واسعة في تسهيل التعليم الأولى وتعميمه وجعله إجباريا، ولكن لا تزال هذه الأمم مقصرة في التعليم العالي، ففيها تجد كثيرا من الراغبين في تنمية علومهم قد سدّت الطرق في وجوههم، إما للنفقات التي تفرض عليهم، وإما لاشتراط شروط أخرى لم تتوافر فيهم، والمثل الأعلى للأمة أمة يجد فيها كل فرد وسائل رقيه وتعلمه ممهدة موفورة .

الفصل الثامن

معنى الواجب — أقسامه — واجب الإنسان نحو ربه —
نحو نفسه — نحو أسرته — نحو وطنه —
نحو الانسانية عامة

تستعمل كلمة « الواجب » فيما يقابل « الحق » فما لغيرنا علينا
فحق لهم وواجب علينا، وفي هذا المعنى استعملنا الكلمة في الفصل
السابق ، وكثيرا ما نستعملها ولا نلاحظ فيها مقابلتها للحق . فنقول :
« قد أدى الواجب » و « الواجب يقضى بكذا » ولسنا نلاحظ
فيها أنها في مقابلة « حق » وإن كان التحليل الدقيق قد يؤدي
الى ذلك .

وقد عرفت به بعض الأخلاقيين بأنه العمل الأخلاقي الذي يبعث
على الإتيان به الضمير .

وقد اختلف علماء الأخلاق في الطريقة التي يتبعونها في تقسيم
الواجب ، فمنهم من قسمه الى :

(١) واجبات شخصية ، أعني واجبات على الشخص لنفسه
كالنظافة والعفة .

(٢) واجبات اجتماعية ، أعنى واجبات على الشخص لمجتمعه ، كالعدل والاحسان .

(٣) واجبات إلهية ، كالطاعة وأداء العبادات .

وهذا التقسيم غير محدود ، فكل واجب يمكن رجوعه الى أى قسم من هذه الأقسام الثلاثة تبعا لاختلاف النظر ، فالنظافة مثلا واجب شخصي من حيث ما يترتب عليها من صحة بدن الإنسان وراحته ، واجتماعي اذا لاحظنا أن صحته تؤثر في حالة المجتمع ، وإلهي إذا نظرنا اليها من جهة أنها تنفيذ لأمر إلهي .

وقسم آخرون الواجب الى قسمين :

(١) واجبات محدودة يمكن أن يكلف بها الأشخاص على السواء من غير تنويع ، ويمكن أن توضع في قانون الأمة ، مثل لا تقتل ولا تسرق ، ويمكن أن توضع بجانبها عقوبات لمنتهكها ، وهذه يشترك في طلبها القانون والأخلاق .

(٢) واجبات غير محدودة ، وهذه لا يمكن أن توضع في قانون الأمة ، وإذا وضعت سببت ضررا أكبر ، ولا يمكن أن يعين المقدار المطلوب منها ، كالأحسان فانه يختلف المقدار الواجب منه باختلاف الزمان والمكان والظروف المحيطة بالشخص .

والقسم الأول يشمل الواجبات الأساسية التي يتوقف عليها بقاء المجتمع وبإهمالها لا يصلح حاله ، والقسم الثاني يشمل الواجبات التي عليها رقيّ المجتمع ورفاهيته ، ومن أجل هذا قيل : إن النوع الثاني أرقى من الأول وأعلى منه شأنًا ، لأن الأول ينفذه القانون والثاني ينفذه الضمير ، كالعدل والإحسان ، فالعدل من القسم الأول وعليه يتوقف المجتمع ، والإحسان من النوع الثاني وهو لا يكون حتى يكون العدل ، فالعدل الدعامة والإحسان مشيد فوقه^(١) .

والواجبات على الناس مختلفة متنوعة ، فكل حالة من حالات الحياة تقتضى واجبا معينا ، والناس في هذه الدنيا كبهارة السفينة ، وبكنود الجليش ، لكلّ عمل وعلى كلّ واجب ، على اختلاف بينهم فيما يجب عليهم ، ذلك لأن الناس مختلفون من وجوه عدّة :

(١) بحسب الثروة فمنهم غنيّ وفقير وبين ذلك .

(٢) وبحسب الرتب الخاصة وعامة .

(٣) وبحسب العمل ، فمنهم من عمله عقلي كالقاضي والمدرس ، ومنهم من عمله يدويّ كالنجار والحديد الى كثير من أمثال ذلك — وهذا ينتج خلافا في الواجبات ، فما يجب على حاكم

(١) لسنا نعني بالإحسان هنا التصدق على الفقير ونحوه ، إنما نعني الفضل في أداء الواجب ، فمثلا إذا كان عليك دين فأدّاه عدل وأن تؤديه بلطف وأدب إحسان .

غير ما يجب على أحد الرعية ، وما يجب على غنى غير ما يجب على فقير. وعلى كل إنسان كائنا ما كان أن يؤدي واجبه . ولا يستصغر أحد ما يجب عليه . فكثيرا ما نتوقف كبار الواجبات على صغارها ، فمثلا لا يصح أن نعدّ عمل الكناسين في الشوارع والأزقة واجبا تافها حقيرا ، فإن عليه نتوقف حياة كثير من الناس وحسن صحتهم ، وليس هذا بالأمر الهين ، وأن كسر قطعة صغيرة في سفينة قد يؤدي الى غرقها كما قد يؤدي الى ذلك فقد سكتها (دفتها) وضياع مسمار صغير في ساعة قد يؤدي الى وقفها كضياع "الزمالك" .

أداء الواجب — على كل إنسان أن يؤدي واجبه ، ذلك لأن الإنسان في هذه الحياة لا يعيش لنفسه فحسب ، بل يعيش له وللناس ، وأداء الواجب يؤدي الى هذه السعادة ، فالتلميذ الذي يؤدي واجبه لأسرته ومدرسته يسعد والديه ، والأغنياء بتأديتهم ما عليهم من بناء للمستشفيات وتبرع للجامعات ونحوها يزيدون في سعادة الأمة ، وعلى العكس من ذلك السارقون والسكليون ، فإنهم بإهمالهم الواجب عليهم وعدم إطاعتهم قوانين بلادهم يزيدون في شقاء الناس وتعاستهم — ولا يبقى العالم ويرقى إلا بأداء الواجب ، ولو أن مجتمعا قصر في أداء كل واجباته أياما لفنى ، فلو أن المدينين لم يؤديوا ديونهم ، ورفض طلبة المدارس أن يتعلموا ،

ولم يؤدّ أفراد الأسرة واجبهم ، ورفض كل ذي عمل أن يؤدّي عمله لحاق بالمجتمع الفناء العاجل — وبقدر قيام الأفراد بواجبهم يقاس رقيّ الأمة .

يجب أن تؤدّي الواجب لأنه واجب ، تؤدّيه إطاعة لضميرنا ، لا طمعا في ربح تناله ، ولا رغبة في شهرة نحصلها ، إن الذين يفعلون لك الخير لما يرجون منك من الخير تجار يبيعون اليوم ما يقبضون ثمنه غدا — إنما مثلنا الأعلى أن نصل من الرقيّ الى حدّ أن نتلذذ من أداء الواجب ووصول الخير الى الناس كما نتلذذ من وصول الخير اليّنا ، ونردّد مع أبي العلاء قوله :

فَلَا هَطَلَتْ عَلَيَّ وَلَا بَارَضِي سَحَائِبُ لَيْسَ تَتَّظِمُ الْبِلَادَا

بل مع البارودي قوله :

أَدْعُو إِلَى الدَّارِ بِالسَّقِيَا وَبِى ظَمًا

أَحَقُّ بِالرِّيِّ لَيْكُنِي أَخُو كَرَمٍ

وكثيرا ما يكلفنا القيام بالواجب مشقات ينبغي أن نتحملها ، ويتطلب منا تضحية يلزمنا تقديمها ، فالقاضي العادل قد يضطر الى الحكم على صديقه أو قريبه فيؤله ذلك ، وقد يحمله حبّ العدل على إغضاب أفراد أو هيئات مختلفة فيعرض بذلك نفسه لأنواع شتى من الآلام ، والجندیّ يقسّم حياته عند الخطر فداء لأمته ،

ورئيس السفينة إذا عطبت يجب أن يبقى في السفينة حتى ينتقل جميع من فيها الى قوارب النجاة، وإعلان الإنسان رأيه وتمسكه بمبدئه قد يبعده عن منصب ويحرمه من فائدة، وفي جميع ذلك يجب أن تحمل التضحية — مهما آلمت — عن رضا وارتياح، ويجب أن نعدّ مكافأة الضمير فوق كل مكافأة .

ولكن يجب هنا أن ننبه الى أمرين كثيرا ما يخطئ الناس فيهما .

(الأول) أن التضحية ليست مقصودة لذاتها ، ولا يصح أن تكون غرضا يريد الانسان تحصيله ، فهي ليست إلا ألما فحضا ينبغي الفرار منه . إلا إذا استتبع خيرا ، فما يفعله بعض الزهاد — من الامتناع عن الأكل إلا النزر اليسير، وحرمان النفس من التمتع بما أحله الله ، ولبس الخشن من الثياب لا لغرض إلا طلب المثوبة بهذا الشقاء — خطأ لا يرضى عنه عقل ولا دين ، وقد عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من نذر أن يصوم قائما في الشمس فأمره بإتمام صيامه ونهاه عن القيام في الشمس ، لأن الله لم يضع تعذيب النفوس سببا للتقرب اليه ، وليست المشقة نفسها سببا في رضا الله ، وإنما رضاه في عمل صالح قد يستلزم المشقة ، وليس بصحيح قول الناس : ”الثواب على قدر المشقة“ إذا أخذ على

عمومه، إنما يكون صحيحا إذا كان العمل المقصود عملا خيرا لا يمكن أن ينال إلا بمشقة، فالتضحية ليست خيرا في نفسها، ولكن إذا كان الواجب لا يمكن أدائه إلا بالتضحية وجبت التضحية .

(الثاني) ليس لأداء أى واجب تقدم أية تضحية، بل لابد أن يوازن بين الواجب والتضحية، فليس صوابا أن يضحي الإنسان بحياته ليرتاح من ألم أسنانه، ولكن خيرا أن يقلم أشجاره ليزيد ذلك في ثمارها، فمتى كان الخير الذى نناله من العمل يرجح التضحية وجبت التضحية، كالطبيب يهجر نومه ويتعرض للتعب والبرد، لإسعاف مريض وإدخال السرور عليه وعلى أسرته، وكالعالم يهجر راحته ولذته لتأليف كتاب يفيد الناس، أو لاستكشاف يزيد في خيرهم، والجندي يضحي بنفسه لتحمي أمته، والأمثلة على ذلك كثيرة .

ومتى اقتنع الإنسان بخيرية التضحية وجبت عليه، ذلك لأنه عضو من جسم كما بينا، فليس من الحق أن يستأثر باللذائد ويتمتع بالراحة التامة والناس من حوله ألدون متعبون، كما لا يستأثر عضو بكل الغذاء ويترك سائر الأعضاء تتضور جوعا .

وسير عظماء الرجال مملوءة بالشواهد على التضحية، ولا تكاد تجد عظيما لم يضح كثيرا، إما لنشر مبدأ يخالف فيه رأى العام

أولاً نقاذ أمته من ضرر يلحقها، أو لتخليص عقائد دينية مما دخل عليها من التغيير، أو لتحقيق مسألة علمية. كثر فيها البحث والجدال، أو لاستكشاف نافع يزيد في سعادة الناس — وهذه التضحية هي التي تكونهم، وهي سرّ عظمتهم، فإن ما يبذلون في حياتهم من الجهد لتذليل الصعاب التي تعترضهم، وما يتحملونه من العناء للتغلب عليها ينمي ملكاتهم ويعودهم الصبر على المشاق لنيل أغراضهم، أما من يستسلم للنعيم وينحدر إلى الراحة فمحال أن يكون عظيماً.

ولنذكر الآن أهم الواجبات :

(١) الواجبات على الإنسان لله

في العالم قوة خفية تحركه، وتدير شؤونه، هي علة وجوده وبقائه، وهي سر ما نشاهد من نظام دقيق وقوانين لا تتخلف، وظواهر نتابع بانتظام، نجوم قد دق نظام سيرها ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وفصول تتعاقب بدقة تستخرج العجب، ونباتات وحيوانات جلّت حياتها عن الوصف — هذه القوة هي لله رب العالمين .

لهذه القوة نحن مدينون بكل شيء لنا، بحياتنا وبصحتنا وبخواسنا وبكل ملاذ الحياة وصنوف النعيم .

فواجب علينا حبه وإجلاله وشكره — نحبّه لأنّه مصدر كل خير لنا، وهو الذي يمدّنا من قدرته بكل ما لنا من وجود وقدره، ونحبّه لأنّه الموجود الكامل الذي لا حدّ لكماله، ونحبّه لأن من طبيعتنا أن نحبّه، فكل إنسان على الفطرة يشعر بحنين إلى إله يفزع إليه عند الشدائد، ويتضرّع إليه في كشف السوء عنه، ويجد في الالتجاء إليه سلوة وأسى عند المصائب، ومشجعا على العمل وباعثا على التضحية إذا دعا الواجب .

ومن آثار حبه التعبّد بأشكال العبادات المختلفة ، فإنها خير ما تكون اذا دعت اليها حرارة الحب وكانت مظهرا من مظاهر الإخلاص لله والطاعة له ، وإلا كانت مجرد حركات وصور وأشكال لا روح لها .

وإن من أحسن أنواع الشكر لله الخضوع لقوانين الأخلاق والعمل بما تقتضيه ، ذلك لأن الله خلق هذا العالم وجعل سعادته مرتبطة بأشياء من صدق وعدل وأمانة ونحوها ، وشقاءه وفناءه في أضدادها ، ثم أمر بما يوصل الى السعادة وسماه خيرا ، ونهى عما يحلب الشقاء وسماه شرا ، وتلك الأمور التي توصل الى السعادة هي بعينها قوانين الأخلاق ، فمخالفتها عاص لأمر الله جاحد لنعمه ، ومطيعها مطيع لأمره مؤدّ لواجبه .

إذا آمتلات النفس عقيدة بما قدّمنا — من أن قوانين الأخلاق هي أوامر الله — صدرت الأعمال عنها ممزوجة بقوة تجعلها أقوى أثرا وأكثر نفعا ، ولذا ترى أن أكثر من آندفعوا لنصرة الحق وتشدّدوا في التمسك به أوقدّموا أنفسهم فداء للفضيلة كانوا ممثّلين عقيدة بالله ووجوب طاعته ، ألهبتهم حماسة رغبة في رضاه وشوق الى لقائه .

واجب الانسان نحو نفسه

يجب على الإنسان نحو نفسه أن يكمل ذاته جسميا وعقليا وخلقيا، فهو مكلف أن يرعى هذه الأمور الثلاثة (جسمه وعقله وخلقته) وأن يبلغ بها ما يستطيع من كمال، ولنذكر كلمة نوضح بها ما يجب في كل ناحية من هذه النواحي الثلاث .

الناحية الجسمية — كان الإنسان أول أمره يعيش عيشة ساذجة، يخرج الى الجبال أو يتجول في الغابات يجمع ما يقتاته في يومه، ولم يكن إذ ذاك مكلفا بهذه الفروض الكثيرة التي قيدته بها المدنية، فلا زراعة ولا تجارة ولا تخصص في عمل، فلما ارتقى وعاش عيشة المدنية سببت له ضعفا في صحته، لأنه حُرِمَ الإقامة طويلا في الهواء الطلق، وعوّض عنها عيشته في منازل لا تستوفي شرائطها الصحية، وبالع في أسباب الترف والرفاهية، وأعتاد كثيرا من العيش كالتدخين ونحوه، وأجهد نفسه في العمل رغبة في جمع المال ليست به المطالب الكثيرة للمدنية، كل هذا ونحوه أثر في صحة المتحضر فكان أضعف جسما وأقل احتمالا للجهد — اعتبر ذلك في الحيوانات، فإن الطيور وأنواع الحيوان التي

تغلب عليها الانسان فحبسها في قفص أو في منزل وأستخدمها في شؤونه أسرع إليها الذبول وكانت عرضة لكثير من الأمراض .

إن جسم الإنسان آلة كسائر الآلات يجب لبقائها وقدرتها على أداء العمل أن تغذى الغذاء الصالح لها وأن يُعنى بها ، يجب للجسم الهواء النقي والغذاء الصالح والرياضة والاعتدال في العمل .

وإن سوء الصحة أكبر تلف يصيب الإنسان ، فهو يضعف قدرته على العمل ، ويختصر حياته ، ويفسد شعوره — وفي كثير من الأحيان يكون ضعف البدن سببا في سوء الخلق وملل العقل وعدم قدرته على الإنتاج .

إن صحة البدن هي أساس كل ماله قيمة في الحياة من مال وحياة ومتاع ، ومما يستوجب الأسف أن هذه الصحة لا تقدر تقديرا صحيحا إلا بعد ضياعها أو تعرضها للخطر، وأن كثيرا من الناس لا يراعون قوانين الصحة إلا إذا أُلجئوا إلى ذلك بسبب ضعفهم ، وكان أسهل أن يقوا أنفسهم من الضعف قبل حصوله .

لا يستطيع الإنسان أن يكون انسانا كاملا ناجحا في الحياة نجاحا حقا إذا كان مريضا أو ضعيفا الجسم ، وأقدر الناس على الإنتاج أطولهم عمرا في صحة ، نعم إن كثيرا من عظماء الرجال كانوا مرضى ،

ولكنهم من غير شك كانوا يكونون أكثر إنتاجا وأصح نظرا وأعظم خيرا لأمتهم وللعالم لو كانوا أحسن صحة، ونجاح هؤلاء مع مرضهم دليل على أن قوتهم العقلية أو الخلقية غير عادية حتى استطاعوا أن يأتوا بما أتوا به على الرغم من مرضهم .

مرض البدن أو ضعفه ذو أثر كبير في الخلق ، فمن العسير أن يكون إنسان كامل الخلق وهو مغمود أو مكبود أو ضعيف الأعصاب ، إنك تراه غالباً ضيق الخلق غضوبا يائسا متبرما بالحياة ، وكثيرا ما يسائل نفسه : هل هذه الدنيا تساوى شيئا ، وينشد مع أبي العلاء قوله :

تَعَبْتُ كُلَّهَا أَلْيَا

هُمَا أَعْجَبُ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي آزْدِيَادٍ

نخير إجابة لهذا أن يقال له : أصلح معدتك أو كبذك أو أعصابك ترأى في الدنيا ما يسر ، وأن فيها ما يحبب الحياة .

إن تضيقا قليلا في بعض غدد المخ يجعل من الصعب على الإنسان أن يعبر عن فكره ، وصدمة لموضع من مواضع المخ تجعل الإنسان معتوها ، واختارا في المعدة يحول كل جميل سائر في الحياة الى قبيح مؤلم ، وأخذ ملعقة من دواء يزيل هذا الاختار يحول العالم في نظره الى ما كان عليه من بهجة وسرور .

كان "كارليل" مموّداً، فقال صديق له مساء يوم مشيراً إلى السماء — : ما أجمل هذا المنظر! إنه يبعث الحكمة إلى نفس الإنسان، فأجابه "كارليل": إنه لا يبعث عندي إلا الأسف والحزن وقال مرة: «إن تسعة أعشار بؤسى وأكثر من تسعة أعشار أخطائي يرجع إلى اضطراب معدتي» ومثل ذلك كثير، مما يدل على ما لحالة البدن من تأثير كبير في العقل والخلق .

إزاء هذا كان واجبا على الإنسان السعى في أن يكون صحيحاً وقوياً، وذلك بأن يتخير من العادات في أكله وشربه وتنفسه واستحمامه وعمله ما يؤثر أثراً حسناً في صحته، وألا يُفْرِط في غذاء عقله على حساب جسمه .

يقول بعضهم: "مَنْ مَرِضَ فَقَدْ أَجْرَمَ"، وهذا صحيح في كثير من الأحيان، لأن كثيراً من الأمراض يمكن اتقاؤه باعتياد النظافة والاعتدال في المأكل وانتظام المعيشة ونحوها، كما أن كثيراً من الأمراض يمكن الوقوع فيها باعتياد أضدادها .

الناحية العقلية — يخرج الإنسان إلى هذا العالم جاهلاً بكل شيء ثم يتعلم ما استفادته الأجيال قبله بتجاربه وممارستهم للعالم الذي حولهم، وأمام كل إنسان طائفة كبيرة من الحقائق ينبغي أن يتعلمها .

وأول ما ينبغي أن يتعلمه تمرين حواسه حتى يكون ما تدركه صحيحا، فإن المواد الأولى للمعلومات إنما تأتي من طريق الحواس — السمع والبصر والشم والذوق واللمس ونحوها — فيجب أن يكون إدراكا الذي ينشأ عنها صحيحا، ولا يكون ذلك إلا بتمرينها وتعويدها أن تكسبنا المعلومات الحققة من نفسها لا من طريق التلقين — يجب أن يمتزج الانسان حواسه حتى يعرف بالتقريب طول الحجر إذا نظر اليها، ووزن الشيء إذا وضعه في يده، وكم ميلا مشى، وما منزلة الصوت في القوة والضعف، وأن يكون دقيق الملاحظة فيعتاد إذا نظر الى شيء ثم غاب عنه أن يعرف أوصافه حتى يستطيع أن يتحدثك عنه في جلاء ووضوح — كل هذه الأمور تفيد عقله فائدة كبيرة، لأن كثيرا من الأخطاء العقلية ناشئة من الخطأ في المعلومات الحسية، وهذه ناشئة من إهمال الحواس وعدم تمرينها في مبدأ الحياة .

إن كسب الانسان معلوماته بنفسه من طريق حواسه أولا ثم من طريق عقله ثانيا خير من معلومات يجمعها من الكتب من غير اختبار شخصي .

ولا يمكن النجاح العلمى إلا بصفات خلقية لا بد من توافرها:

(١) تحمل الصعاب والصبر عليها، فالوصول إلى الحق يحتاج إلى

عناء ومكابدة في جمع الحقائق وامتحانها ، واستخراج النتائج الصحيحة منها ، فمن لم يتسلح بالصبر لا يمكنه أن يكون عالماً ، وكما قيل : ” إن العلم لا يعطيك بعضه إلا اذا أعطيته كاك ” ليس مجرد الحفظ والاستظهار بل ولا مجرد الفهم مما يصح أن يسمى علماً ، إنما العلم أن تمتحن الحقائق بنفسك وتبحثها لتبين صحتها من فاسدها ،

(٢) حب الحقيقة ، فلا تندفع وراء عواطفنا في اعتقاد شيء أو عدم اعتقاده ما لم يثبت لدينا بالبرهان صحته ، نتوقف في صدور الحكم اذا كانت البراهين لم تتوافر عليه ، لا نُخَدِّع بحسن المظهر أو العبارات المنمقة حتى نصل الى كنه الشيء ونزنه وزنا دقيقاً ، نلتزم الصدق في العلم فلا نصبغ الحقيقة بميلنا الشخصي ولا بشهواتنا وأهوائنا ، ويدعونا حب الحقيقة الى أن نوسع صدرنا للنقد يصدر على آرائنا وأفكارنا ، نشغف بالقراءة فلا يكون كل غرضنا من العلم امتحاناً نتجح فيه أو شهادة نحصل عليها ، وإنما نقرأ لأن القراءة غذاء عقولنا ، ولكن بجانب هذا يجب أن نتعلم كيف نقرأ ، قال رسيكن : ” قد تقرأ كل ما في دار الكتب الانجليزية ثم تصبح بعد — كما كنت — إنساناً غير متعلم ، ولكن اذا أنت قرأت عشر صفحات بإمعان في كتاب جيد كنت الى درجة ما إنساناً

متعلما“ وقال آخر: ”لا تعمل القراءة أكثر من تزويد العقل بالمعرفة ، أما التفكير فهو الذى يجعل ما نقرأ جزءا من أنفسنا ، يجب أن تنعم النظر ونطيل الفكر فيما نقرأ ، وليس يكفى أن تثقل أنفسنا بالمعلومات الكثيرة نكثسها ، فما لم نمضغه ونهضمه لا يغذيها ولا يكسبنا قوة“ .

الناحية الخلقية — أهم أسباب الوقوع فى الرذائل شيثان (١) الأثرة أو التغالى فى حب النفس . (٢) الجهل .

فالأثرة نوع من أنواع الضعف متأصل فى الإنسان ، فكل امرئ يتحيز لنفسه ويفكر فيها أكثر مما يفكر فى غيره ، ويدعوه ذلك فى كثير من الأحيان أن يضحى بمصالح غيره وسعادتهم لمنفعته الشخصية ، ذلك هو ما نسميه الأثرة .

حارب المصلحون هذه الأثرة كثيرا ونجحت تعاليمهم ، ففرق كبير بين أثر المتوحشين وأثره المتمدنين ، ولكنها لا تزال باقية ، ولا يزال الطريق طويلا أمام الناس حتى يستطيعوا أن يعاملوا غيرهم كما يعاملون أنفسهم ، ولا تزال هناك عوامل تبجي فى النفوس هذه الأثرة كالحرب وتزاحم الناس على وسائل العيش .

وهذه الأثرة أصل كبير من أصول الشر ، فلو بحثت عن أكثر ما يرتكب من الجرائم لرأيت أن سببها التغالى فى حب النفس ،

وأن المجرم لم يستطع أن يتصور أن يضع نفسه موضع من أجرم معه ،
ولو وضع نفسه وغيره في مستوي واحد ما استباح لنفسه الإجمام .

والسبب الثاني — الجهل — ونعني به الجهل بأن الناس
مثلنا ، يُحسسون إحساسنا ، ولهم من الحقوق مالنا ، وعلينا من
الواجبات ما عليهم ، فالإنسان يتخيل أن ليس لغيره مثل إحساسه ،
وأنهم لا يتألمون من الشر كما نتألم ، وأن ليس لهم من الحق في الحياة
والسعادة ماله ، ومن أجل ذلك يتخذهم وسائل لمنفعته الشخصية ،
وقد حمله على هذا التفكير السيئ السبب الأول وهو الأثرة .

إذا زال هذا الجهل واتسع مجال الفكر وعرف الانسان حقا
أن الناس مثله سواء بسواء في شعورهم وحقوقهم وواجباتهم حقق
القواعد الذهبية التي وضعها الأنبياء والمصلحون مثل "عامل الناس
بما تحب أن يعاملوك به" و "أحب لأخيك ما تحب لنفسك"
و "اليد العليا خير من اليد السفلى" وفي ذلك تحقيق المثل الأعلى
للأخلاق .



مراعاتك جسمك حتى يكون صحيحا قويا ، وعقلك حتى
يكون صحيحا قويا ، وخلقك حتى يكون صحيحا قويا ، هو ما يجب
عليك نحو نفسك ، وهذا وحده السبيل لسعادتك وسعادة أمتك بك .

واجب الانسان نحو أسرته

لكل الحيوانات — تقريبا — مأوى تأوى اليه ، فللطائر وكره ، وللسبع عرينه ، وللنحل خلاياه ، ويكاد يكون هذا المأوى أعز شيء عندها ، فما أسعد الطائر يرفرف بجناحيه يروح ليلا الى وكره ، وما أخوفه اذا اقترب أحد منه فهتد بيضه أو فرخه ، وما أضرى السبع اذا قصد أحد عرينه — لا شيء يثير الخوف والغضب عند هذه المخلوقات أكثر من أن يمس بسوء مأواها .

كذلك الإنسان يجب أن يكون بيته أعز بقعة على الأرض عنده — إن علاقة الانسان ببيته أقوى من علاقة الحيوان بمأواه ، ذلك لأن حاجة الحيوان الصغير الى أبويه قليلة اذا قيسست بحاجة الطفل ، فصغار الطيور مثلا بعد أسابيع قليلة تقوى وتطير ، وتفارق عشها وتستقل بنفسها ، وتبنى لها عشا خاصا بها ، وتضعف علاقتها بأبائها ان كان ثم علاقة . أما الطفل فلا بد له من سنين طويلة حتى يستطيع أن يستقل بنفسه ، واذا استقل فلا تزان العلاقة بينه وبين أسرته قوية متينة ، وسبب ذلك أن بناء الانسان أكثر ترعبا ، ومطالب الحياة لديه أكثر تعقدا ، فهو محتاج الى زمن أطول حتى يتسلح للكفاح في هذا العالم ويؤدى واجبه .

في هذا البيت يتعلم الطفل أهم دروس الحياة، ولو خرج الى العالم قبل أن يستكمل تربيته المنزلية لكان متوحشا، فالبيت في الحقيقة هو أكبر ممدن له .

في هذا البيت يتعلم كثيرا من الدروس، فمن حبه لإخوته وأخواته ووالديه يتعلم درس حب الناس وحب الوطن، ومن طاعته لوالديه يتعلم طاعة قوانين البلاد وقوانين الأخلاق .

وإذا كان للبيت من المنزلة ما بيننا كان علينا نحوه واجبات نجعلها فيما يأتي :

يجب على كل فرد في الأسرة أن يعمل على أن يكون بيته أسعد مكان، نخشونة المعاملة وخشونة القول والاساءة وإثارة الشحناء ونحو ذلك كل هذه إذا كانت خارج البيت رذيلة فهي في البيت أزدل .

ومما يؤسف له أن كثيرا من الناس يتجملون في أخلاقهم مع أصدقائهم ومن يتعاملون معهم فإذا حلوا في بيتهم تبدلت أخلاقهم الى قسوة وخشونة وفضاظة وانقلب ذلك الصوت الهادئ المؤدب الى هجر في القول وسوء في الأدب — والحق أن أدل شيء على الأخلاق الحقيقية هو خلق البيت لا خلق الشارع، نخلق الشارع

خلق التصنع، والاختلاف في المعاملة بين أهل بيته ومن في الخارج يدل على أن الخلق الجميل ليس شيئاً في نفسه، وإنما هو كالثوب الجميل يلبسه إذا خرج ويخلعه إذا عاد .

كذلك يجب أن نشعر أن منزل الأسرة للأسرة جميعها، فليس من الحق أن يستأثر أحد الأبناء بخير ما فيه، ولا يرمى إلا نفسه، ولا يهتم إلا بما يعود على شخصه .

أول واجب على الأبناء الطاعة للأبوين إلا في أحوال نادرة يأمر فيها الأبوان بالخطأ الواضح .

يجب أن يشعر كل فرد أنه مسئول — بقدر ما يستطيع — عما يحفظ للبيت سعادته ونظامه ونظافته وحسن العلاقة بين أفرادها، وإن خطأ يخطئها أحد منهم تهدد سعادة المنزل وتعرضه للشقاء .

ليست الأمة إلا عدة أسرات، وليست المدينة إلا عدة بيوت، والسلوك الذي يسلكه الناشئ في بيته ليس إلا صورة مصغرة لسلوكه بعد في أمته، وإذا كان منبع النهر ملوثاً تلوث النهر، فصلاح الأمة وصلاح البلاد دائماً هو بصلاح الأسرة .

واجب الانسان نحو وطنه

(الوطنية)

الوطنية حب الإنسان لبلاده، أرض آبائه وأجداده، وإنما نحب وطننا لما بيننا وبينه من الصلات المتينة، فقد تربينا في جوه وبين قومه، وصرنا منه بمنزلة الفرع من الشجرة، كَوْن هواؤه وتربته أجسامنا، وصارت قوانينه وعرفه عاداتنا، وأصبحت طريقة أهله في مأكلاتهم وملبسهم وكلامهم طريقتنا، نحن إليه إذا نرحنا عنه، ويهيج أشجاننا إليه ذكرانا له، ونانس بقربه، ونعتز بعزته، ونهون بهوانه.

على أن حب الوطنية يكاد يكون طبيعيا في كل إنسان، حتى نرى بعض الحيوانات تحن إلى أوطانها كما تحن الطيور إلى أوكارها، ولقد ينشأ البدوي في بلد جدد، ومكان قفر، وهو مع ذلك يسعد بوطنه ويقنع به ويفضله على كل مصر «وترى الحضري يولد بأرض وباء وموتان وقلة خصب، فاذا وقع ببلاد أرياف من بلاده وجناب أخصب من جنابه، واستفاد غنى حق إلى وطنه

(١) «مستقرّه» هذا هو السرّ في أنك ترى البلد تفسو فيه أنواع الحيات، أو يكون مثارا للبراكين من حين الى حين، أو عرضة لطغيان الماء أو عصف الرياح، ثم لا يبرحه أهله، ولا يعدلون به بلدا سواه «قيل لأعرابي: كيف تصنع في البادية اذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظله؟ قال: وهل العيش الا ذاك، يمشي أحدنا ميلا فيرقض عرقا، ثم ينصب عصاه، ويلقى عليها كساءه، ويجلس في فيئه يكتال الريح، فكأنه في إيوان كسرى» .

ويكون حب الوطن عند أكثر الناس في حالة تُكون الى أن يَدَّهم وطنهم خطرا، أو توجد دواع تنبهم، فتنبه مشاعرهم، ويظهر حبهم لوطنهم بأجلى مظاهره، ويدعوهم للعمل على خدمته، فيبذلون نفوسهم وأموالهم في سبيل نصرته، والذود عن مجده وحرّيته .

مظاهر الوطنية — يستطيع الإنسان أن يخدم وطنه من طرق عدّة :

(١) الدفاع عن البلاد اذا هوجمت أو أريد التعدي على حرّيتها، وهذه هي وطنية الجنود، وقد ظهر هذا النوع من الوطنية

(١) الجاحظ .

بأجل مظاهره في الحرب العظمى ، فقد بذلت فيها الدماء من كل فريق من المتحاربين بسخاء حفظا على البلاد من التعدي عليها أو على حرّيتها .

(٢) وقف الحياة على خدمة الوطن ، وهذه وطنية السياسيين والمصلحين ، فالسياسيون يديرون دفة البلاد نحو ما يرقيا ويعلى شأنها ، ويقودون الرأي العام الى ما فيه مصلحة الوطن ، فان رأوا رأيا لم يرضه عامة الناس عملوا ما يرونه حقا ، ولم يثنهم عن عزيمتهم تهمة يثمون بها ولا نقد يوجه اليهم ، يفضلون عمل الحق ولو أهينوا على عمل خطأ يرضى الجمهور وابن كرموا ، عمادهم إخلاصهم ومرشدهم وجدانهم — وأما المصلحون فانهم يرون موضع الداء فيعالجونه ، وكثيرا ما يحدث أن الداء يتأصل فيها حتى تألفه وتظنه السلامة ، فإذا دعاها المصلح الى العمل على الخلاص منه قامت في وجهه وعارضته وحسبته خارجا عليها ، كما قال الله تعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقَا كَذِبُكُمْ وَفَرِّقَا تَقْتُلُونَ ﴾ ولكن المصلح يزيد الاضطهاد تمسكا برأيه ودفاعا عنه ، ولا يزال الناس يلتفون حول رأيه شيئا فشيئا حتى يصبح المذهب المقترر والرأي السائد ، ويعجب الناس اذا نظروا الى ماضيهم كيف

كانوا يعتنقون هذا المذهب الفاسد، وكيف لم يدركوا فسادهم بمجترد الدعوة اليه .

(٣) أداء الواجب — وهذه وطنية الناس كلهم، فأداء كل واجب اليومي في عمله وفي بيته ومع أولاده وأصحابه ومن يعاملونه وانتخابه خير الناس اذا انتخب، ومساعدته المشروعات النافعة بماله وعمله وجاهه — كل هذه وطنية صادقة صحيحة ترفع شأن الوطن وتعلي مكانته .

(٤) تشجيع المصنوعات الوطنية والحاصلات البلدية وتفضيلها على غيرها ما أمكن، كما أن وطنية الصانع والمنتج تقضى عليهما أن يبذلا الجهد لجعل المصنوع والمنتج في حالة لا تقل عن أمثالهما مما يرد من الخارج، وعلى الحكومة مساعدة ما تنتجه البلاد نفسها بما تضع من نظام الضرائب ونحوهما، وإن الأمة اذا ساعدت المصنوعات والحاصلات البلدية تكون قد ساعدت على حفظ الثروة في بلادها وجعلتها تتقل من يدها الى يدها الأخرى .

وبعد، فكل إنسان يستطيع بعمله ولو حقيرا أن يخدم وطنه، وليست خدمة الوطن مقصورة على العظماء، بل إن العظماء لا يكون لهم أثر كبير ما لم تؤيدهم الأمة، فالقائد الكبير إنما نفخره نتيجة عمله

وعمل الجنود الصغار ، بل وعمل من صنع للجنود نعالهم وملابسهم ونحو ذلك ، والسياسي العظيم لا يصل الى غرضه إلا بمعونة كتاب يعينونه في فروع من العمل مختلفة ، وأفراد يبذلون ما يحتاج اليه من المال وهكذا ، الأمة كالساعة ، كل آلة لها عمل ، ولا بد من أداء كل آلة عملها لينتظم سيرها ، وإن كان يختلف عمل الآلات أهمية ، وسير هذه الآلات وانتظامها لا تقع عليه العين عادة ، وإنما مظهر هذا الانتظام سير العقارب ، فإذا دلت على الأوقات بالضبط دلنا ذلك على أداء كل آلة وظيفتها وإلا ، كذلك الحوادث العظيمة في الأمة والنجاح الكبير لها مظهره عطاء الرجال والمصلحون ، ولكن ما كان يتم ذلك في الحقيقة لولا أعمال آلاف من الناس لم يعرفهم التاريخ ، فهؤلاء الآلاف منزلتهم منزلة آلات الساعة الخفية ، والعطاء بمنزلة عقربي الساعة هما مظهران لأعمال عدة دقيقة ، غير أن الشأن في الساعة أنه إذا تعطلت آلة منها وقفت الساعة جميعا أما في الأمة فإذا تعطل أحد أفرادها عن السير حملت الأمة عبأه وسارت ، فالجندي في الجيش إذا نحر صريعا سار الجيش وتحمل عبء الجندي ، وكان الأولى للجيش ألا ينخر أحد منه صريعا ، وأن يحمل كل واحد عبأه فقط .

فالفلاح في زرع الأرض وعنايته بالبقر والغنم ، والنجار
 في صناعته ، والتاجر ببيعته وشرائه ، والجندى بمحاربته ، والكاس
 في الشوارع يكنس الأقدار ، والأثم تربي بنينا وتُعنى بالبيت وشؤونه
 والخدام بخدمتها ، والأطباء بمحاربتهم الأمراض ومعالجتهم المرضى ،
 ورجال الحريق بإطفائهم النار ، ورجال العلم الذين ينشرون العلم
 ويحاربون الجهل ، ورجال السياسة الذين ينصرون الحق وينخذلون
 الباطل بأقوالهم وأعمالهم ، والشعراء والموسيقيون وجميع رجال
 الفن الذين يمدون الحياة بالسعادة ، ويشعرون الناس بالجمال ،
 كل هؤلاء يخدمون وطنهم بعملهم ، وكل هذه الأعمال لا بد منها
 لسير الأمة الى الأمام ، وكل هؤلاء اذا أدوا أعمالهم باتقان ولم يراعوا
 فيها مصلحتهم الشخصية فحسب بل راعوا فيها خيرهم وخير الناس
 فهم وطنيون صادقون يفخر الوطن بهم ، ويشرف بعملهم .

واجب الإنسان نحو الإنسانية عامة

النوع الانساني مؤلف من أمم وقبائل مختلفة لكل منها
 ميّزات وخصائص ، وهى مع كثرتها تكوّن جسما واحدا ، كل أمة
 وكل قبيلة عضو من أعضائه ، يستفيد كل عضو من سلامة باقى
 الأعضاء ويتضرر بما يصيبها ، فالحمى فى المدينة اذا كان قدرا غير
 صحى تهدد جميع أجزاء المدينة بالخطر ، وانتشار الوباء فى جزء من
 مملكة يعرض المملكة جميعها للضرر ، والمخترع يبتكر آلة جديدة
 فيستفيد من اختراعها عدد كثير ، والعالم يستكشف حقيقة
 علمية فيشارك فى الاستفادة منها سائر العلماء فى أنحاء الأرض ،
 والأمة تنجى جنباية كأن تُشهر حربا فيتضرر العالم كله منها ضررا
 بليغا ، وهكذا .

يجب أن يشعر الفرد أنه عضو فى الهيئة الإنسانية ، يجب الخير
 للناس جميعا من أى جنس كانوا ، وبأية لغة تكلموا ، وفى أى
 صقع سكنوا ، ويشعر نفسه بالشفقة والرحمة على البائسين أيا كانوا ،
 ليس النوع الانسانى إلا أسرة كبيرة تقوم الأمم فيها والقبائل مقام
 الأفراد فى الأسرة ، فيجب أن يكونوا جميعا متعاونين على ترقية
 نوعهم وتحقيق الخير للإنسانية عامة .

إن الإنسانية مصابة بمواضع ضعف كثيرة ، فكثير من بقاخ الأرض حرمت ضروريات الحياة ، يعيش أهلها عيشة بؤس وشقاء ، تفتك بهم الأمراض وتكتسحهم الأوبئة ، ويفسد حياتهم الجهل — . واجب علينا إزاء هؤلاء أن نرقيهم ما استطعنا وأن نرسل إليهم أشعة النور والعلم ونمدّهم بوسائل العيش ، كذلك تحدث كل يوم كوارث مزعجة ، فاصابة عمال ، وحوادث اصطدام ، وغرق وحريق ، ونكبات زلزال ، وثوران بركان ، ونحو ذلك من مصائب الحياة ، فالإنسانية توجب إطانة هؤلاء المنكوبين بكل الوسائل ، كالذى ترى من جمعيات الإسعاف والهلل الأحمر والصليب الأحمر والجمعيات الخيرية ، كل هذه تحتاج الى مال ينفق منه على أغراضها ومساعدات تقدم لها .

كثير من المرضى حرموا وسائل العلاج ، فقر مدقع ، وبيوت قذرة ، ومعيشة تعين المرض على الفتك ، فهؤلاء لا بدّ لهم من مستشفيات تنفسح لهم ، وأطباء يتولون علاجهم ، وهذه لا بدّ لها من مال ورجال .

آباء مجرمون حكم عليهم بالسجن فحرم أولادهم العائل الذى يعولهم ، أو تجار أفلسوا أو قعد بهم المرض عن مواصلة السعى فحرمت أسرهم ما يقيم أودهم ، وأفراد نكبوا بعمى أو صمم أو عاهة

جعلتهم من العاطلين لا يجدون ما يأكلون ، كل هؤلاء هؤلاء
لا بد أن ترحمهم الانسانية فتزيل كربهم ، وتأخذ بيدهم ، بإنشاء
المعاهد والمستشفيات وجميع المرافق — يجب أن يتساند القادرون
لحمل العبء عمن ضعفوا عن مواصلة السير في الحياة ، وتخفيف
ويلاتهم ، ولذلك وسائل كثيرة كالأشتراك في الجمعيات التي أشرنا
إليها قبل ، والاحسان إلى البائسين ونحو ذلك من ضروب الخير .



قد كانت أخلاق الناس الأولين قَبَلِيَّةً ، لا يرون الخير إلا مافيه
نفع قبيلتهم ، وليس عليهم حرج في أن يَسْلُبُوا مال غيرهم ، ويستبيحوا
دماءهم ، فما يُرتكب نحو قبيلة غير قبيلتهم لا يعدّ جريمة ، وإنما
الجريمة أن يتعدى أحد أفراد القبيلة على مثله ، وليس للفضيلة
ولا الرذيلة قيمة ذاتية أو نظر لتأثيرها عامة إنما هي فضيلة أو رذيلة
تبعاً لمن تقع عليهم ، وفي بغض القبائل إلى الآن من يعاقب بالموت
من يسرق من قبيلته ، ويكافئ ويشجع من يسرق من غيرها ، وكثير
من السائحين والمستكشفين يُقتلون أو يعذبون إذا وقعوا في أيدي
هذه القبائل ، ولا يشعر القاتلون بحرج من ذلك لأنهم لا يرون
قتلهم إثماً ، فلما ارتقى الناس قليلاً اتسع نظرهم وكانت أحكامهم

الأخلاقية أقرب الى الصواب ، فكانوا ينظرون الى الأمة المكونة من جملة قبائل كأنها جسم واحد ، ولكنهم كانوا ينظرون الى الأمم الأخرى نظرة العداء كما كان الشأن عند اليونان قديما ، كان العالم الانسانيّ عندهم ينقسم الى قسمين : يونانيين ومتوحشين ، يعتقدون في جبلهم (أوليمبوس) الذي لا يبلغ ارتفاعه إلا ٩٧٠٠ قدم أنه أعلى جبل على وجه الأرض ، وأنه مسكن الآلهة ، ويستبيحون الاسترقاق من غيرهم ، حتى أن أرسطو كان يقول : ” إن الأرقاء حيوانات مستأنسة لها عقل “ ولهذا النظر لم يكن اليونان يعدلون في غيرهم .

ارتقى الناس فيما بعد فكانوا في حكمهم بالخيرية والشرية والحسن والقبح أوسع نظرا ، تبودلت التجارات بين الأمم ، وحسنت الصلات ، ووجدت القوانين الدولية ، والأخلاق الدولية ، ولم ينظر الفرد من أمة الى الفرد من أمة أخرى نظرة العدو لعدوه ، وإن كانت لا تزال عند الأمم وفي النفوس بقية موروثه من آباءنا المتوحشين ، ومن أفضع هذه الآثار الحروب بين الأمم ، والناس سائرون الى الكمال ، وستغلب حتما فكرة الإنسانية فينظر الإنسان الى الإنسان من أيّ جنس كان كأنه أخوه ، لا يظلمه ولا يخونه ، يعدل معه كما يعدل مع أفراد أسرته ، وسيضمحل النظر الشخصي أو الجنسيّ خضوعا لسنة النشوء والارتقاء ، ويحل محله

النظر العالمى ، فينظر كل فرد الى النوع الإنسانى كأنه جسم واحد ،
يعمل على ترقيته ، وتتعاون الأمم وتتبادل المنافع ، وترمى كلها الى
غرض واحد هو كمال النوع .

وهذا النظر لا يتنافى مع الوطنية ، فكما أن الفرد فى الأسرة يعمل
لخيره وخير أسرته كذلك الفرد فى الأسرة الكبيرة — وهى الجنس
البشرى — يعمل لخير وطنه وخير الإنسانية .

الفصل التاسع

المثل الأعلى

قبل أن نشرع في بناء بيت يضع المهندس له رسماً، وقبل أن يضع هذا الرسم كانت في ذهنه صورة كاملة للبيت يستمل منها صورته التي يرسمها. وكذلك الشأن في واضع الرواية، قبل أن يخرجها الى الوجود كانت مرسومة في ذهنه، وكل انسان يجب أن تكون عنده صورة كاملة لما يود أن تكون عليه حياته المستقبلية، وكثيراً ما يسائل الإنسان نفسه : ماذا أكون؟ ما الذي أطمح أن أكونه في مستقبل حياتي؟ ما الإنسان الكامل الذي أسعى لأن أتمثله يوماً ما؟ فالصورة التي في ذهننا نود تحقيقها ونستمل منها لنجيب على هذه الأسئلة تسمى في عرف الكتاب الحديثين « المثل الأعلى » .

وهو يميز الإنسان عن غيره من الحيوان، فإننا نرى الحيوانات تعيش على نمط واحد، ليست في رقة مستمرة، فمعيشة القط قديماً هي معيشته اليوم، وكان النحل يبني خلاياه على أشكال سداسية

كما بينها الآن ، أما الإنسان فدائم الرقي ، هو اليوم غيره في القرن الماضي بل غيره بالأمس ، لأن أمامه «مثلاً أعلى» يحد في الوصول إليه ، وكلما قرب منه سبقه المثل .

ويجب أن يكون لكل إنسان «مثلاً أعلى» يسعى لتحقيقه ويوجه أعماله للوصول إليه ، ذلك لأن الإنسان في هذه الحياة كقائد السفينة في البحر المتلاطم الأمواج ، لا يمكنه أن يصل إلى المرفأ حتى يعرف أين المرفأ ، ويرسم خطة للوصول إليه ، وإلا تنكب ، وكانت سفينته عرضة للارتطام ، وكذلك يحيط بالإنسان قوى مختلفة : شهوات تتجاذبه ، وصعوبات تعترضه ، ومؤثرات متباينة ، فإن لم يحدد غرضه ويعين مثله الأعلى تقسمته هذه القوى واضطربت مسالكه .

وللمثل الأعلى تأثير في النفوس ، فهو دائم الشخوص أمام نظر الإنسان يجذبه نحوه ويدعوه لأن يحققه ، وإن أعمال الإنسان وطريقته في الحياة تدل على مثله الأعلى «ما هو» — وكل المؤثرات في الأخلاق من بيئة ومنزل وتعليم إنما تصلح الإنسان بواسطة إصلاح المثل الأعلى ، أما المؤثر الوحيد مباشرة فهو ذلك «المثل» .

اختلاف المثل الأعلى — تختلف المثل العليا عند الناس اختلافاً يكاد يكون بعدد رؤوسهم ، فهذا مثله الأعلى رجل

غنى متمتع بكل ملذات الحياة، وذلك مثله إنسان كامل العقل،
قد تفوق في العلوم وتضلع من المعارف، وآخر مثله وطني يدافع
عن حقوق وطنه ويرفع مستوى أمته، كذلك يختلف سذاجة وتركبا
فقد يكون مثل شخص صورة ساذجة رسمها مما يسمعه من والديه،
وقد يكون مثل آخر صورة مركبة قد رسمها بعد أن بحث
في الأخلاق بحثا علميا، وعرف الفضائل ورتبها حسب ما صح عنده
من مقياس الخير والشر .

والإنسان الواحد يختلف مثله من حين لآخر، والأمة الواحدة
تختلف مثلها كلما تدرجت في معارج الرقي، وليست الصعوبة أن
يحد الإنسان أو الأمة مثلا أعلى، فالمثل كثيرة لاعدادها، وإنما
الصعوبة اختيار أحسنها وأنسبها .

وليس في وسع الأخلاق ولا الفيلسوف أن يرسم مثلا أعلى
دقيقا يوافق كل إنسان وكل أمة، فالمثل الذي يتفق مع غرائز
إنسان ودرجة عقله من الرقي والبيئة التي تحيط به ربما لا يوافق
الآخر، لاختلافه فيما ذكرنا، اللهم إلا إذا رسم الأخلاق أو الفيلسوف
صورة عامة اقتصر في رسمها على ما يوافق سواد الناس، كالخياط
يعمل ثوبا واسعا يصبح أن يلبسه كثيرون مع تعديل بسيط .

وكل الذى نستطيع أن نقوله : إنه ينبغى أن يكون المثل الأعلى للشخص صورة كاملة تمثل خير إنسان يستطيع الشخص أن يكونه فى كل شأن من شؤون حياته ، ففى عمله مثله أن يكون أحسن ما يستطيع : من جدّ وأمانة وإتقان ومهارة ، وفى سياسته لنفسه مثله أن يكون ضابطاً لنفسه ، يعمل بإرشاد عقله ، وفى معاملته للناس مثله أن يعاملهم كما يحب أن يعامل ، وأن يحب الخير لهم كما يحبه لنفسه .

مم يتكوّن المثل الأعلى — أهمّ عامل فى تكوّن المثل المنزل والمدرسة والدين ، فربية الناشئ المنزلية ، وما يسمعه من أبويه ، والنظام الذى يسير عليه بيته وما يراه فى المدرسة ، وما يسمعه من مدرسيه ، وما يلزمونه بقراءته من الكتب ، وما يحبّونه إليه من عظماء الرجال ، والذين الذى يتدين به ، وما يحويه من نظام ، وما يرسمه من شكل الحياة الأخرى ، كل ذلك له أكبر الأثر فى تكوين المثل الأعلى ، وكذلك غرائز الإنسان الطبيعية لها أثر كبير فى انتخاب الصورة التى تتخذ مثلاً ، فالميل الموروثة من شجاعة وهمة أوجبن ونحول تعين على تحديد المثل الأعلى ، وهى عامل قوى فى تكوينه .

نمو المثل — يكاد يكون لكل إنسان مثل أعلى ولكن لا يشعر به من أين أتاه، وسبب ذلك أن المثل يتكون مع الإنسان في نشأته وينمو بنموه، فلم يكن شيئاً جديداً منفصلاً عنه حتى يشعر به، ويعرف متى أتاه، ومن أين جاءه، يتكون المثل جرثومة في أثناء التربية المنزلية، ويكون لما يسمعه من القصص — ولو خرافية — دخل في تكوينه، ثم يتوارد عليه التغير كلما وجد مؤثر جديد، من رواية يقرأها أو حكاية يسمعها أو تمجيد لعمل عظيم، أو ذم لعمل حقير، وإن في طبيعة الناشئين في أول حياتهم ميلاً إلى سماع قصص الأبطال وبكار الأعمال وعجائب الحوادث، وذلك — ولا شك — مما يساعد على تنمية المثل عندهم، فإذا خرج الشاب إلى معترك الحياة كان لتجاربه في عمله، وتبادل الأخذ والعطاء مع الناس ما يحدد غايته في الحياة وينير أمله ويوضح مثله، وباتساع نظر الإنسان في الحياة وكبر عقله يكمل المثل وتم أجزاءه .

وكما أن المثل عرضة للكمال والاتساع كما بينا كذلك هو عرضة للنقص والضيق، فالعمال الذين يقضون حياتهم في عمل يدوي محدود، ثم لا يصادقون بعد قضاء نهارهم ما يفيد عقلهم، أو يوسع نظرهم، يضيق مثلهم، ويتحدد أملهم، وذلك شأن طائفة كبيرة من العمال وكتبة الدواوين الذين لا يؤدّون في الحياة غير عملهم الآلي،

فلا يرقون مداركهم ، ولا يوسعون أنظارهم ، وحياتهم ليست
إلا يوما واحدا متكررا .

وفي ضيق المثل خطر عظيم ، فالمثل هو الذي يبعث في الإنسان
روح العمل ، ويزيد في نشاطه وقوته ، وهو الذي يصحح حكمه
على الأشياء ، فالإنسان عادة عند الحكم على شيء أو نقده يقيسه
بمثله ، ثم يحكم بالخطأ أو الصواب ، وبالخير أو الشر ، فاذا تحدد
المثل وضاق قلّ نشاطه وساء حكمه ، وعلى العكس من ذلك اذا
ترقى مثله .

الفضل العاشر

الفضيلة

الفضيلة هي الخلق الطيب ، والخلق هو "عادة الإرادة"
 فإذا اعتادت الإرادة شيئا طيبا سميت هذه الصفة فضيلة ، والإنسان
 الفاضل هو ذو الخلق الطيب الذي اعتاد أن يختار أن يعمل وفق
 ما تأمر به الأخلاق ، وبذلك يكون الفرق بين الفضيلة والواجب
 واضحا ، فالفضيلة صفة نفسية ، والواجب عمل خارجي ، وعلى
 هذا يقال : فلان أدى الواجب ولا يقال : أدى الفضيلة بل حاز
 الفضيلة .

وقد تطلق الفضيلة على العمل نفسه فيقال : "فضائل الأعمال"
 وليس يُعنى بها كل عمل أخلاقي بل الأعمال العظيمة التي يستحق
 فاعلها الثناء الجزيل ، فلا نسمى دفع ثمن ما اشترى فضيلة ، إنما
 يسمى الإتيان بالعمل الكبير مع تحمل المشاق في سبيله فضيلة ،
 ويشهد لهذا المعنى اشتقاق الكلمة نفسها ، فإنها مأخوذة من الفضل
 وهو الزيادة — وعلى هذا المعنى تكون "الفضيلة" أخص من
 "الواجب" .

اختلاف الفضائل — تختلف قيمة الفضائل في الأمم
 اختلافا كبيرا ، فلو أننا وضعنا لأمة قائمة تتضمن الفضائل مرتبة
 حسب أهميتها لها لوجدناها تخالف ما يجب أن يوضع لأمة
 أخرى ، ذلك لأن ترتيب الفضائل في كل أمة يجب أن يتبع
 مركزها الاجتماعي وظروفها المحيطة بها ، وما يفشو فيها من أمراض
 أخلاقية ، وما اعتورها من أشكال حكومات ونحو ذلك ، فترتيب
 الفضائل في الأمة المحكومة غيره في الأمة الحاكمة ، وفي الأمة الآخذة
 بحظ وافر من المدنية غيره في الأمة البدوية ، وفي الأمة البحرية غيره
 في الأمة ساكنة الصحراء وهكذا ، فالأمة المهتدة بالحروب ترى
 الشجاعة أهم فضيلة ، والأمة الآمنة مطمئنة ترى العدل خير
 فضيلة ، والأمة التي تحيا على الصناعة ترى الأمانة والاستقامة
 عماد الفضائل ، وهكذا .

ويختلف أيضا مفهوم الفضيلة الواحدة باختلاف العصور ،
 فما كان يفهم من الشجاعة عند اليونان غير ما يفهم منه في العصور
 الحديثة ، قد كادوا لا يفهمون منها إلا الصبر على تحمل الآلام
 الجسمية ، واليوم نفهم منها ما هو أعم من ذلك ، حتى إنها تشمل تعبير
 الإنسان عن رأيه من غير خشية لمن حوله ، والعدل تطور مفهومه
 تطورات عدة حسب تطور الأمم في حالتها العقلية والاجتماعية ،

والإحسان الى الفرد بالتصدق عليه قد كان يعدّ من أهم الفضائل في القرون الوسطى حتى وُضع موضع النقد في العصور الحديثة ، واعتُرض عليه بأنه لا يميّز فيه بين المستحق للإحسان وغير المستحق تمييزاً يوثق به ، وبأنه يشلّ المحسن اليهم ، ويقعد بهم عن العمل ويميت ما في نفوسهم من شرف وإباء ، واستحسن المحدثون إنشاء جمعيات للإحسان تحسّن اليها الأفراد وهي التي تتولى الإنفاق على المعوزين بعد أن تدرس حالتهم وتعرف فقرهم ، ولا تكتفى هذه الجمعيات بإعطاء المال الى المحتاجين ، بل توجد عملاً لمن لا عمل له ، وتنفذ أولاد البائسين من آبائهم حتى لا ينشؤا نشأتهم . ولا يصابوا بمرضهم ، فتنشئ المدارس الصناعية ، وتعلمهم علماً عملياً يكتسبون منه أقواتهم ، وقد اهتم كثير من الأمم المتمدنة بإنشاء هذه الجمعيات ، وحرّمت إحسان الفرد للفرد ، وحضّت على إحسان الفرد للجمعيات .

وهكذا الشأن في كثير من الفضائل ، قد هذبها رقى العقل وتقدّم المدنية .

كذلك تختلف قيمة الفضائل باختلاف حالة الأفراد وأعمالهم ، ففضيلة الكرم بالنسبة للفقير ليست من الأهمية بالدرجة التي لها بالنسبة للغني ، ولا الفضائل التي في الدرجة الأولى للمسنّ هي بعينها

الفضائل التي في الدرجة الأولى للشباب، ولا فضائل المرأة مرتبة ترتيب فضائل الرجل، ولا فضائل التاجر هي نفسها فضائل العالم وهكذا — ومن الصعب على الأخلاق التعمق في التفصيلات، وبيان الاختلافات الدقيقة بين الأشخاص التي يترتب عليها اختلاف في قيمة الفضائل .

وكل الذي نستطيع أن نقوله إن الناس جميعا — مهما اختلفوا — مطالبون بفضائل عامة من صدق وعدل ونحوهما يجب أن يتصفوا بها، وأنهم على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم يستوون في شيء واحد، وهو أن كلا منهم مطالب أن يضع في الدرجة الأولى من الأخلاق ما يناسب حالته ويتفق مع مركزه الاجتماعي وعمله الذي يؤدّيه، وإن اختلف تطبيق ذلك .

أقسام الفضيلة — بعض الفضائل يمكن أن تدخل في فضائل أشمل منها، كالأمانة، فإنها تدخل في مفهوم العدل . وكالقناعة فإنها تدخل تحت العفة، وبعض الفضائل يكون مولدا من فضيلتين أو أكثر، كالصبر فإنه ينتج من العفة والشجاعة، وكالحذر، من العفة والحكمة، فما أصول الفضائل التي هي أساس لغيرها ؟

[قد ذهب «سقراط»^(١) الى أنه « لا فضيلة إلا المعرفة » يرى بذلك أن معرفة الانسان الخير والشر تكفى وحدها لعمل الخير وتجنب الشر ، وإقدام الانسان على الشر ليس له من سبب إلا الجهل بنتائج ، ألا ترى الانسان اذا رأى سبعا ضاريا لا يقدم على عرينه ، واذا رأى هوة سحيقة لا يتردى فيها وهكذا ، فلو علم الإنسان نتائج الشر علما جازما صحيحا لم يقدم عليه ، فكل الشرور ناشئة من الجهل ، ولو علم المرء أين الخير لعمله حتما ، وعلل ذلك بأن كل إنسان بطبيعته يقصد الخير لنفسه ويكره لها الشر ، فمحال أن يفعل ما يضرها وهو عالم بضرره ، فما يصدر عن إنسان من الخطأ إنما منشؤه الجهل بما يعقب العمل من نتائج أو الشك فيها ، وعلاج الشرير أن يُعلم نتائج الأعمال السيئة التي تصدر عنه علما صحيحا ، ولتعويد إنسان الخير وجعله مصدرا للفضيلة يُعلم نتائج الأعمال الحسنة .

وهذا خطأ واضح فكثيرا ما نعلم الخير وتجنبه ، ونعلم الشر ونأفيه ، فمعرفة الخير ليست كافية في الحمل على فعله ، بل لا بد أن ينضم اليها ارادة قوية حتى يعمل على وفق ما علم .

(١) سقراط فيلسوف يوناني شهير وهو أستاذ أفلاطون عاش من (٤٦٩ — ٣٩٩) قبل الميلاد ، وهو يعد مؤسس علم الأخلاق ، لأنه أول من حاول أن يبنى معاملات الناس على أساس علمي .

وعلى رأى « سقراط » ليست هناك فى الحقيقة إلا فضيلة واحدة وهى « المعرفة » ، وإن شئت فسمها « الحكمة » ، وليس غيرها من الفضائل كالشجاعة والعفة والعدل إلا مظهرا من مظاهرها وصادرا عنها .

ورأى « أفلاطون »^(١) أن فى الإنسان قُوى ثلاثة إذا اعتدلت نشأت عنها الفضائل ، وهذه القوى هى : القوة العاقلة ، وهذه إذا اعتدلت نشأ عنها فضيلة الحكمة ، والقوة الغضبية ، وهى إذا اعتدلت نشأ عنها الشجاعة ، والقوة الشهوية أو البهيمية وهى إذا اعتدلت نشأ عنها العفة وهذه الفضائل الثلاث باعتدالها جميعا ينشأ عنها العدل ، فالعدل نتصف به النفس عند أداء هذه القوى الثلاث وظائفها باعتدال ، وعند ما تكون متساندة بحيث تتعاون كل قوة مع أخرى . فأصول الفضائل عنده أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل .

(١) أفلاطون فيلسوف يونانى عاش من سنة (٤٢٧ - ٣٢٧) قبل الميلاد

وهو أساذ أرسطو ومن أكبر من كتب فى الأخلاق .

أما «أرسطو»^(١) فكان يذهب الى أن أساس الفضائل «خضوع الشهوات لحكم العقل» وبعبارة أخرى «تسليم زمام الشهوات للعقل يقودها» وهناك طرفان ينبغي تجنبهما ، الطرف الأول محاولة استئصال الشهوات ، والطرف الثانى إرخاء العنان لها والانهماك فيها ، إنما الفضيلة الاعتدال ، فلا يطغى أحدهما على الآخر.

وقد جرت هذا القول «أرسطو» الى وضع «نظرية الأوساط» أى أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين ، الإفراط والتفريط ، فالشجاعة وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين الشرف والبخل ، والعفة بين الفجور والخمود الخ . وهناك فضائل لم تضع اللغة أسماء لطرفيها الرذيلين ، ولكن هذا لا ينفى أن الفضيلة فى هذه الحالة أيضا وسط بين رذيلتين .

وقد اعترض على هذه النظرية بأن هناك كثيرا من الفضائل لا يظهر فيها أنها وسط بين رذيلتين كالصدق والعدل ، فليس هناك إلا صدق وكذب ، وظلم وعدل .

(١) أرسطو أو أرسططاليس أعظم فلاسفة اليونان عاش من سنة (٣٨٤ - ٣٢٢) ق م ويلقب بالمعلم الأول ، لأنه أول من جمع علم المنطق ورتبه واخترع فيه ، وقد دعاه فيلبس لتعليم ابنته الاسكندر المقدونى فعلمه ثلاث سنين ، وله كتب كثيرة فى فروع العلم المختلفة .

وبأن بعض الفضائل ليس في وسط الرذيلتين ، فإن الشجاعة ليست على بعدين متساويين من التهور والجن ، بل هي أقرب الى التهور ، وكذلك الكرم أقرب الى الإسراف منه الى البخل [.

وأتبع بعض المحدثين طريقة أخرى في تقسيم الفضائل ، فقالوا : إن الفضائل إما فضائل شخصية ، كضبط النفس وتهذيبها ، وإما فضائل اجتماعية كالعدل ، فالفضائل الشخصية هي الفضائل التي تنظم حياة الفرد ، وتجعل ملكاته وقواه في حالة تعادل ورفق ، وأما الفضائل الاجتماعية فهي الفضائل التي تجعل الإنسان في وفاق مع من حوله من الناس وترقى شؤونهم ، نعم ان النوعين من الفضائل يتوقف كل منهما على الآخر ، فإنه اذا انعدمت الفضائل الشخصية لا يمكن تحصيل الخير للجمع ، ولا سيره في طريق رقيه ، ولا إيصال الحقوق للناس ، وإذا انعدمت الفضائل الاجتماعية ساءت أخلاق الفرد ، ولم يستطع أن يرقى نفسه ترقية تامة ، ولكن يمكن التمييز بين النوعين بسهولة .

طرق غرس الفضائل — للفضائل وسائل مختلفة

تعين على غرسها ، نذكر هنا أهمها :

(١) فأقول ذلك تكوين العادات الصالحة في الطفل منذ صغره ، وذلك عمل الآباء في بيوتهم ، والمدرسين في المدارس ، وخصوصا المدارس الأولى ، فهم بالزامهم الطفل أن يكرر عملا صالحا يصبح عادة له ، كتعويده النظافة وقول الصدق والطاعة ونحو ذلك ، وإذا تأصلت هذه العادات أصبح لها من السلطان عليه ما يقرب من الطبيعة التي خلق عليها الإنسان ، ولذلك قالوا : « العادة طبيعة ثانية » وبعد أن ينشأ الناشئ وينمو عقله يصبح تكوين العادات الصالحة موكولا إليه هو ، وهو المكلف بها والمسئول عنها ، فإذا عني بنا آباؤنا ومربونا في صغرنا ، وعُنينا بأنفسنا في شبابنا بتكوين العادات الصالحة عنيت هذه العادات بنا في بقية حياتنا ، وجنينا من ورائها ربما عظيما ، فنحن كالمصور يعمل صورة من جبس لين لا يلبث بعد أن يتصلب ، فإن آعتنى بالصورة وجملها كانت — مدة بقائها — زينة تسر الناظرين ، وإن لم يعن بها ونحرجت مشوهة جمدت على شكلها وكانت غصة للرائين .

والإنسان يكاد يكون مجموع عادات تمشي على الأرض ، فطريقته في معيشتة تعتمد على عاداته ، بل هو سعيد أو شقي بالعادة ، أمين أو خائن بالعادة ، شجاع أو جبان بالعادة ، فإذا عني بنا في صغرنا ربمنا كثيرا في حياتنا .

(٢) ومما يعين على غرس الفضائل « القدوة الصالحة » ،
لأنها تثير الشعور ، وتحبي الضمير ، وتكون القدوة بأمور :

(١) الصداقة ، فالإنسان يقترب جدّ القرب من أخلاق من
يصادق ، وكما قال بعضهم : « خبرني من تصادق أخبرك من أنت »
وتقليد الصديق لصديقه ظاهر في نواح مختلفة — في القول — فنحن
نبدأ نتكلم بالألفاظ التي يتكلم بها الصديق ، فإن كانت سيئة بذينة
شعرنا في أول الأمر بكراهيتها والاشمئزاز منها ، ثم نتعود سماعها
بتكررها على آذاننا ، ولا نشعر بما كنا نشعر به من اشمئزاز ، ثم لا نلبث
أن ننطق بها كما ينطق صديقنا ، كذلك — في الفعل — فنحن
نعمل أعمال أصدقائنا بحكم ما فينا من ميل الى التقليد ، ننسخها
كما ننسخ صفحة أماننا ، بل نحن نقلد أصدقاءنا في كثير من أعمالهم
من غير شعورنا ، فالكلمات التي نسمعها منهم والأعمال التي تصدر
عنهم تُحَفِّظُ في أذهاننا ، ثم تبعثنا على العمل على وفقها ولو لم
نتعمد ذلك .

والصديق يؤثر في صديقه خيرا كان أو شرا ، فالصديق السيئ
ينضح أفكارا سيئة وأقوالا سيئة وذوقا سيئا يتشربها صديقه ،
والصديق الصالح ينضح أفكارا صالحة وأقوالا نقية وذوقا طاهرا
يتأثر بها صديقه .

كل هذا يوجب علينا أن نغنى كل العناية بتخير الأصدقاء ،
وأن نفر من الصديق السيئ كما نفر من المحموم خشية العدوى ،
ونعده خطرا يتهدد أخلاقنا ، نهرب من مجلسه ، ونهرب من سماع
قوله ، ونهرب من رؤية عمله ، لأن الشر الذي يصدر منه يعلق بنا .

(ب) كذلك — من القدوة الصالحة التي تعين على الفضيلة
سير الأبطال ورجال الأخلاق ، فالقراءة في كتب تراجم العظماء
وقصصهم وأعمالهم في حياتهم يودع في أذهاننا ذخيرة نقلها
في أعمالنا ، وكما أن كثيرين ممن أجزموا كان سبب إجرامهم قراءة
رواية لص أو مشهد سيئ أو نحو ذلك ، كذلك كثير من العظماء إنما
كانوا عظماء برؤيتهم القدوة الصالحة وتبعهم لسيرة بطل رأوه
أقرب إلى نفوسهم ، فعرفوا تفاصيل حياته ، فكانت منبعاً لعظمتهم .

الحياة الأخلاقية حياة تأثر وتأثير ، فكل إنسان يتأثر بمن حوله
ويؤثر فيمن حوله ، كالشيء الحار والبارد ، فإنهما إذا تلامسا
اكتسب الحار برودة والبارد حرارة ، فيجب أن نغنى بهاتين الناحيتين ،
فمن ناحية التأثير يجب ألا نختلط إلا بمن يفيدنا التأثير ، ومن
ناحية التأثير يجب أن نكون قدوة صالحة لأصدقائنا والذين
يعاملوننا ، ونعلم أن عملنا الشر ليس مقصورا علينا ، بل سيسهل

لآخرين أن يعملوا الشرّ مثلنا، وأن يكون مثلنا الأعلى أن لو عرضت حياتنا بجميع دخائلها لم يجد الناس فيها إلا خيرا يُحتذى .

(٣) . كذلك مما يعين على غرس الفضائل دراسة علم الأخلاق ، فكل علم يمنح دارسه عينا ناقدة في دائرة الأشياء التي يبحث عنها ، وكذلك الشأن في علم الأخلاق ، فدارسه أقدر على نقد الأعمال التي تعرض عليه وتقويمها تقويما مستقلا غير خاضع الى إلف الناس وتقاليدهم ، بل هو يستمد آراءه من نظريات العلم وقواعده ومقاييسه ، وهذا يعينه على أن يكون فاضلا .

وكثير من العلوم كالرياضة والطبيعة وتقويم البلدان الغرض منها مقصور على معرفة نظرياتها وقواعدها ، أما علم الأخلاق فله غرض أسمى وهو التأثير في ارادتنا وهدايتها ، وحملنا على أن نشكل حياتنا ونصنع أعمالنا حتى نحقق المثل الأعلى للحياة ، ونحصل خيرا وكالنا ، ومنفعة الناس وخيرهم ، فهو ينير السبيل أمام الإرادة ، ويشجعها على عمل الخير ويثبطها عن فعل الشر .

فعلم الأخلاق لا يفيدنا ما لم تكن لنا ارادة تنفذ أوامره وتجنبنا نواهيه .



عادات صالحة نعتادها من صغرنا . وقدوة حسنة تحي ضمائرنا ،
 من أصدقاء متقين ، وكتب مختارة تشرح سِير الأبطال وعمل
 الصالحين ، ودراسة لعلم الأخلاق تشحذ ذهننا لمعرفة الخير والشر ،
 وتستحث ارادتنا للعمل على وفقه ، كل هذه أكبر ما يعين على
 غرس الفضائل في النفوس .

ولسنا نستطيع عدّ الفضائل جميعها ، والكلام على كل منها
 تفصيلا ، لذلك نختار بعض الفضائل الهامة ونشرحها .

—————

الصدق

هو أن يخبر الإنسان بما يعتقد أنه الحق ، وليس الاخبار مقصورا على القول ، بل قد يكون بالفعل ، كالإشارة باليد وهز الرأس ونحوهما ، وقد يكون بالسكوت من غير قول ولا فعل ، فمن ارتكب جريمة ورأى غيره يؤنب على ارتكابها ثم سكت فقد كذب ، ومن الكذب المبالغة في القول مبالغة تجعل السامع يفهم منه أكثر من الحقيقة ، كما إذا بالغ إنسان في وصف شيء بالعظم أو الكبر أو الصغر حتى أفهم السامع أكثر من حقيقته .

ومن الكذب أن يحذف المتكلم بعض الحقيقة ويذكر بعضها إذا كان ذكر ما حذف يجعل لما ذكر لونا خاصا .

وهناك طريقة واحدة للصدق وهو « أن يقول الإنسان الحق كل الحق ، لا شيء غير الحق » .

وإنما كان الصدق فضيلة لأنه أهم الأسس التي تبنى عليها المجتمعات ، ولولاه ما بقي مجتمع ، ذلك لأنه لا بد للمجتمع من أن يتفاهم أفراداه بعضهم مع بعض ، ومن غير التفاهم لا يمكن أن

يتعاونوا، وقد وضعت اللغات لهذا التفاهم الذي لا يمكن أن يعيشوا بدونه ، ومعنى الإفهام أن يوصل الإنسان ما في نفسه من الحقائق الى الآخرين ، وهذا هو الصدق .

يتجلى لك ذلك في المجتمعات الصغيرة كالأُسرة والمدرسة ، فكلاهما لا يبقى إلا بالصدق ، فلو كذب الطلبة في كل ما يتكلمون ، وكذب عليهم مدرّسهم في كل ما يعلمونهم ويحدّثونهم ما بقيت المدرسة ، وكذلك البيت — وإذا كان المجتمع لا يمكن أن يبقى اذا كان كل ما يتكلم فيه كذبا كان من الواضح أن يتضرّر بقدر ما فيه من الكذب ، فقد يبقى اذا غلب فيه الصدق على الكذب ولكنه يكون فاسدا منحطا .

ويدلك على ضرورة الصدق أن أغلب المعلومات التي وصلت إلينا بالسمع أو القراءة مبناها الصدق ، وعليها يعتمد الإنسان في معاملاته وتصرفاته ، فلو كانت كذبا لكانت الأعمال المبنية عليها خطأ وضلالا ، ولمّا وصل إلينا من العلم إلا شيء قليل ، وهو ما يمكننا أن نجترّبه بأنفسنا ، وهو لا يغني في الحياة .

ومن أجل هذا عدّ الصدق أساسا من أسس الفضائل ، وجعل عنوانا لرقّة الأمم وانحطاطها .

ومما يشاهد في شأن الكذب أن الكذبة الواحدة قد تستوجب
 عدّة كذبات لتغطيتها ، ذلك لأن الكاذب يخلق في الدنيا بكذبه
 ما لم يكن ، يخلق خيالا لا يتفق مع الواقع ، وقد يضطره هذا
 الخيال الذي خلقه أن يكذب كثيرا ليوفق بين الواقع والخيال
 ومحال ذلك .

ولا يزال الانسان يكذب حتى يفقد ثقة الناس به وتصديقهم له
 حتى فيما هو صادق فيه ، كما روى عن «أرسطو» أنه سئل ما ضرر
 الكذب قال : (ألا يثق الناس بقولك حين تصدق) وكل إنسان
 في هذه الدنيا في حاجة شديدة الى ثقة الناس به سواء كان تاجرا
 أو طبيا أو مدرسا أو محترفا حرفة ، فمن فقد ثقة الناس به فقد حُرِمَ
 خيرا عظيما .

وكما يكذب الانسان على غيره كصاحبه وأخيه يكذب على
 نفسه ، وكثيرا ما يكون ذلك ، كمن يحاول أن يقنع نفسه بأنه بذل
 ما في وسعه لأداء ما يجب عليه ، وهو في الحقيقة لم يفعل ذلك ،
 وكما يحصل كثيرا من محاولة المرء أن يخلق لنفسه الأعذار عن كسله
 أو بخله أو قسوته أو جبنه غشا لنفسه وخداعا ، وصرفا لها عن
 الحق ، وقد يغلو المرء في هذا الأمر حتى يصير عادة له ، وحتى
 لا يستطيع أن يفرق بين الحق والباطل والصدق والكذب .

وهناك أنواع من الكذب قد وضعت لها أسماء خاصة كالنفاق ، وهو أن يُظهر الإنسان غير ما يبطن ، اشتقته العرب من النَّافِقَاء وهو إحدى بحرة اليربوع ، يخفيها ويظهر غيرها ليلجأ إليها عند الحاجة ، ومن هذا سمي الرجل الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر منافقا ، فهو كذب عملي ، ومن هذا النوع أيضا من يظهر الصداقة ويبطن العداوة ، وكل من يظهر بمظهر ينافي حقيقته منافق مذموم .

وكالملق أو التملق وهو أن تمدح آخر بما لا تعتقده فيه لتدخل على قلبه السرور رجاء أن تتال منه منفعة أو نحو ذلك .

وضد النفاق والملق الصراحة ، وهي أن نفتح قلوبنا لمن نخاطبهم ، وأن نصدق في التعبير عما تكنه ضمائرنا — والكلمة مأخوذة من قولهم : «لبن صريح» إذا ذهب رغوته وكان خالصا ، فالصريح من الناس من يخلص من الغش ويظهر لمن يحدثه حقيقة ما في نفسه .

وقد يخطئ قوم في فهم الصراحة فيظنون أنها تقتضي أن يقول الإنسان كل حق لكل إنسان . وهذا ليس بصحيح ، فهناك مجال للقول ومجال للسكوت . وليس من الصراحة أن تجرح

إحساس الناس وتؤلم مشاعرهم من غير حاجة تدعو الى ذلك ،
أو أن يحدث الطبيب الناس بأمراض من يعالجهم من الأسر اذا
كان ذكر ذلك يسيئهم ، كما أنه ليس من الصراحة أن تفخر
بأعمالك ، أو تفشي ما تعرفه من أسرار نفسك أو بيتك ، أو جيرانك
أو أصدقائك ، ولو كان ما تحدث به حقاً ، وإنما الصراحة ألا تقول
— اذا قلت — إلا الحق ، ولكن لا تقوله إلا لمن له الحق أن يعرفه .

ومن ضروب الكذب الممقوت «خلف الوعد» فمن وعد آخر
وعدا وفي نيته عند وعده ألا يفى فقد كذب ، وكذلك من كان
في نيته الوفاء ثم أخلف لا لمذر أو لعذر يستطيع التغلب عليه ،
في خلف الوعد إضرار بالموعد كإضاعة وقته أو إيجاد أمل كاذب
عنده أو نحو ذلك — والوعد دين ، فكما يجب وفاء الديون يجب وفاء
الوعد ، ويجب الاقتصاد فيها حتى لا يبعد الإنسان وعدا إلا وفي .

ولا يحق لإنسان بحال من الأحوال أن يفتح على نفسه باب
الكذب ، بل ينبغي أن يلتزم الصدق في جميع أقواله وأعماله — ولسنا
ننكر أن التزام الإنسان الصدق في كل ما يقول ويفعل يستلزم مشقة
كبيرة ، ويحتاج الى عناء ورياضة نفس وصبر وشجاعة ، ذلك لأنه
قد يعرض للإنسان في حياته اليومية مسائل دقيقة يرى فيها قصار

النظر أن الكذب أنفع ، وأنه لا مفتر منه ، ونحن نورد لك أمثلة من أقواها ونبين حججهم في الكذب ثم نبين وجه الخطأ فيها .

(١) ناشئ ابتداءً يتعلم فن الشعر عرض عليك قصيدة له لم تستحسنها . فهل تصدق وتقول : إنها قصيدة سقيمة المعاني ، ظاهر فيها التكلف سخيفة النسيج ، وحينئذ تكون قد آلمته وجبته ، وقد يكون قولك سبباً في تركه الشعر مع أنه لو شجع لصار شاعراً مجيداً ، أو خير أن تكذب وتقول : إنها قصيدة جميلة فتدخل على قلبه السرور ، وتشجعه على السير في طريقه حتى يبلغ غايته .

والجواب أن هنالك مندوحة عن الكذب ، فإن المسئول إذا كان لا يجيد الشعر ولا يستطيع الحكم عليه يمكنه أن يقول بحق : " لست من الشعر بالمنزلة التي تخول لي الحكم " فإن كان يجيد أو يستطيع أن يميز بين جيده ورديئه فليستحسن من الأبيات ما هو حسن في نظره ، ولينتقد بلطف وأدب مواضع النقد عنده ، ويرشده إلى طريقة التخلص من عيوبه ، فهذا صدق لا يؤلم ، وفيه من الفائدة ما ليس للمدح الصرف الكاذب ، إنما يؤلم النفس احتقار الشيء جملة ، وأن يقال الصدق بنخشونة وفظاظة ، أما النقد المؤدب فأشهى إلى نفس طالب الحقيقة من القول الكاذب المزوق .

(٢) الكذب في الحروب ، فقد ترى أمة محاربة لأخرى أن تكذب عليها للإيقاع بها ، كأن تقول : إنها ستهاجمها من جهة لا تريدها ، أو تشرع بالفعل في الهجوم من ناحية وفي عزيمتها الهجوم من ناحية أخرى ، تريد بذلك التعمية عليها ، فهل يصح أن نلزمها الصدق فنضيق عليها النصر مع أن الحرب خدعة ؟

والجواب أن الكذب في الحروب ليس كذبا في الحقيقة ، لأن الأمة بإعلانها الحرب على أمة أخرى قد أعلنتها بالآتفاهم بينهما ، وحيث لا تفاهم لا كذب ، لأن معنى إعلانها الحرب أنها ستفعل معها ما تستطيع من الإيقاع بها ولو بالخدعة ، فمثلها مثل من قال لآخر : " سأقص عليك خبرا كاذبا " ثم قصه عليه ، فليس هذا بكذب لأنه لم يخبره بغير ما يعتقد ، فإن اعتقد السامع صدق الخبر فاللوم عليه .

(٣) وأدق من هذا وأصعب ما يحدث كثيرا ، يكون لأُم ولد مرض بالسل مثلا ، وهي التي تمرضه وتعنى بشؤونه ، وكان قد مرض لها ولد من قبل بذلك المرض ومات ، استدعت الطبيب ففحصه وعرف مرضه فسألته : هل هو مصاب بالسل ؟ سألته وهي مرتبكة مرتجفة تخشى أن يكون الجواب نعم ، أفليس من الحكمة أن

يقول الطبيب : إنها "نزلة شعبية" حتى تسترد قوتها وتعنى بالولد .
وهو أشد ما يكون حاجة الى عنايتها . أو يقول الحق فتفقد قواها ،
وترتبك في تمرىض ابنها ، فيثقل المرض عليه ويسرع ذلك
الى موته ؟

والجواب أن الناظر اذا قصر نظره على هذه الحادثة في وقتها
رأى أن الكذب قد يكون واجبا ، ولكنه إذا وسّع نظره رأى أن
الأم ستعلم أن مرض الولد كان السل لا النزلة الشعبية ، وأن
الطبيب قد كذب عليها رحمة بها ، وسيعلم الناس ذلك فلا يثقون
بقوله مهما أكد لهم عن المرض ، ولو علم الناس أن الأطباء جميعا
يتبعون هذه الطريقة لفقدوا الثقة بهم ، فهذا الكذب قد أضاع
معانى اللغة ، وأزال الثقة بين الناس ، وينبغى للإنسان عند الحكم
على شيء أن يوسع نظره ليرى ما يترتب عليه من الاضرار في المستقبل
القريب والبعيد .

ومع هذا فانا نوجب على الطبيب أن يتخير الألفاظ التي يستعملها
لأداء الخبر . وأن يفتح على المريض وأهله باب الأمل بالقدر
الذى يعتقد ، ولكن لا يحيد عن الصدق .

على أنه إذا كان الصدق قد يُؤدى بحياة بعض الأفراد، والكذب
ينجيهم، — وإن كنا لم نعثر في حياتنا اليومية على شيء من هذا —
فلم لا نضحى بهذه الأنفس القليلة في سبيل الحق، وفي سبيل
المحافظة على "معاني اللغة"، وثقة الناس بعضهم ببعض، وهي كلها
ركن عظيم من أركان العمران؟ إذا كان من الصواب أن نضحى
بآلاف النفوس للمحافظة على مملكة أفلا يكون من الحق أن نضحى
بنفوس معدودة، ونحتمل أضرارا محدودة، للمحافظة على الحق؟
فلندع هذا النوع من الجدل؛ ولنلزم أنفسنا بقول الحق،
كل الحق، في كل حال.

الشجاعة

الشجاعة هي مواجهة الآلام أو الخطر عند الحاجة في ثبات ،
وليس مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس ، فالذى يرى
النتائج ويخاف من وقوعها ثم يواجهها في ثبات رجل شجاع ،
وما دام الإنسان يعمل في موقفه خير ما يعمل فهو شجاع ، فالقائد
الذى يقف في خط النار فيرتعش ، ويخاف أن يتزل به الموت ، ثم
يضبط نفسه ، ويؤدى عمله كما ينبغى قائد شجاع ، بل هو شجاع
أيضا اذا رأى أن خير عمل يعمل أن يتجنب الخطر، وأن الواجب
يقضى عليه أن ينسحب بجنوده حيث لا خطر، فإن هو أضع
في موقفه رشده، أو ترك موقفا يجب أن يقفه ، أو فتر بجنوده من
خطر كان عليه أن يواجهه ، فهو جبان .

فليست الشجاعة تعتمد على الإقدام والإحجام ، ولا على
الخوف وعدمه ، إنما تعتمد على ضبط النفس وعمل ما ينبغى ،
فإن ضبط الشخص نفسه ، وعمل ما يجب أن يُعمل في مثل
موقفه رغم خطير أمامه ، وزغم ما يشعر به من خوف ، فهو
شجاع ، وإلا فلا .

وليس بالمحمود أن يتجرد الانسان من كل خوف ، فقد يكون الخوف فضيلة وعدمه رذيلة ، فالخوف عند إمضاء عقد سياسي مثلا أو إنهاء أمر خطير فضيلة ، إذ هو يحمي على الروية حتى يختمر رأيه ، وفضيلة أن يخاف الإنسان من ثلم عرضه وشرفه ، فليس بشجاع من يدخل الحانة ويشرب جهارا ، أو يقامر على ملأ من الناس غير هيأب ولا وجل ، فذلك ضعف في الشعور لا شجاعة .

إنما الجبن المذموم والخوف المردول أن يبالي الإنسان في الخوف ، أو يهول في الشيء المخوف ، فمثلا كل إنسان عرضة لكَلْب كَلْب يعضه ، أو سلك ترام يصعقه ، أو سيارة أو قطار يدهمه ، أو نار تشب في بيته ، أو مكروه ينال منه ، كل هذه الأشياء تخيف ، ولكن الجبان يبالي في الخوف منها ، ويخشى جدا الخشية من وقوعها ، ثم يحمله خوفه على اجتناب العمل ، فلا يركب مركبا — مثلا — خوف أن يغرق به ، ولا يرحل عن وطنه إذا لم يجد عملا خوف أن يدركه الموت ، ولكن الشجاع لا يفكر كثيرا في احتمال الشر ، ثم إذا وقع لم يطر قلبه شعاعا ، بل يصبر له ، ويتحمله في ثبات ، إن مرض لا يضاعف مرضه بؤهمه ، وإذا نزل به مكروه قابله بجأش رابط نخفف من شدته .

وعلى الجملة فالشجاع ليس بالمتهور الطائش الذى لا يخاف مما
ينبغى أن يخاف منه ، ولا بالخبان الذى يخاف مما لا يخاف منه .

وليست الشجاعة مقصورة على حمل السلاح ومشاهدة الحروب ،
بل إن كثيرا من الأعمال اليومية يحتاج الى شجاعة لاتقل عن شجاعة
الجنود ، فرجال المطافئ ، والأطباء ، وعمال المناجم ، وصيادو الأسماك
فى البحار عند اشتداد الرياح وتلاطم الأمواج ، والممرضات اللاتى
يتعرضن للأخطار بتمريض المصابين بالأمراض المعدية ، وربانو
السفن التجارية ، كل هؤلاء وأمثالهم شجعان يتحملون الأخطار كما
يتحمل الجنود ، ويقابلون الشدائد فى صبر وثبات .

ومن أكبر مظاهر الشجاعة حضور الذهن عند الشدائد ،
فشجاع من إذا عراه خطب لم يذهب برشده ، بل يقابله برزائه
وثبات ، ويتصرف فيه بذهن حاضر ، وعقل غير مشتب ، قد يرى
إنسان نارا تلتهم بيته ، أو لصا يغشى منزله ، أو قطارا يكاد يهشم
رجلا ، أو سفينة أشرفت على الغرق ، فإن فقد رشده ، وأضاع
صوابه ، وحار طرفه ، ودله عقله ، ولم يدر ماذا يفعل ، كان جباناً .
وإن هو ملك نفسه ، وثبت قلبه ، وتصرف فى الأمر على أحسن
وجه ، كان شجاعاً حقاً . كالذى حكى عن عبد الملك بن مروان

أنه أتاه في يوم واحد خبر مقتل ابن زياد ، وهزيمة جيشه ، ودخول ابن الزبير فلسطين ، وثوران ثورة في دمشق ، ومسير ملك الروم الى الشام ، فما تزعزع ولا طاش ، وقد رأى في هذا اليوم ثابت الجنان ، غير مقطب الوجه ، ثم شغل ملك الروم بمال يؤديه اليه ، ووجه جيشا الى فلسطين فاستردّها ، وسار الى دمشق فأسكن قتلتها .

الشجاعة الأدبية — لما تقدم الناس في المدنية لم يكونوا في حاجة كبرى الى الشجاعة البدنية كما كانوا يحتاجون إليها أيام بداوتهم ، فظهر للشجاعة معنى جديد يسمونه الشجاعة الأدبية ، يعنون بها أن يبدى الإنسان رأيه وما يعتقد أنه الحق مهما ظن الناس به ، أو تقولوا عليه ، ومهما جرّ ذلك عليه من غضب عظيم ، لا يخاف من تحمل ألم يصيبه في سبيل قول حق يقوله ، أو مبدأ هام ينشره ، فلورأى في مسألة غير ما يراه علماء وقته أو من حوله من الناس ، أو خالف حاكما أو عظيما ، جاهر برأيه غاضبا عما يناله من الأذى ، يقول الحق بأدب وإن تألم منه الناس ، ويعترف بالخطأ وإن نالته عقوبة ، ويرفض العمل بما لا يراه صوابا ولو لم يقع رفضه موقعا حسنا .

• والتاريخ مملوء بكثير من الناس ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل قول الحق ونصرتة ، وصبروا على الآلام عشقا للحق وهياما به ، واستعذبوا طعم الرزايا تنزل بهم لأنهم يحبون الحق أكثر مما يحبون أنفسهم ، ومنهم الأنبياء والمرسلون والشهداء ونوابغ العلماء ، فقد أودوا في الحق فتحملوا الأذى ، وباعوا أنفسهم وأموالهم مرضاة له ، كالذي حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء إليه عمه أبو طالب ينصحه بالعدول عن دعوة الناس فقال له : « يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

ومن هؤلاء «سقراط» الفيلسوف اليوناني ، فقد علم شبان أثينا ما وصل إليه علمه ، وبذل جهده في تثقيف عقولهم وتقويم أخلاقهم ، فلما بلغ سن السبعين آتته بأنه يجحد آلهة اليونان ، ويضلل الشبان ، فحكم عليه بالإعدام ، وكان في استطاعته أن ينجو بنفسه إذا هو تعهد أن ينقطع عن التعليم ، ولكنه أصر على قول الحق وأضاع نفسه .

وفي تاريخ العرب كثير من أمثال ذلك «فأبن رشد» الفيلسوف الشهير المتوفى في سنة ٥٩٥ هـ اضطرهد من أجل اشتغاله بالفلسفة ، وسجن ونفى فلم يعبأ بذلك كله .

”وَأَبْن تَيْمِيَّةَ“ أحد الفقهاء المشهورين المتوفى سنة ٧٢٨ هـ
أداه اجتهاده الى مخالفة فقهاء عصره في بعض المسائل فوشوا به
الى السلطان فسجنه ، فظل يكتب الرسائل في سجنه يؤيد بها مذهبه ،
ويدحض بها حجج معارضييه .

وفي العصور الحديثة لولا أن قوما من العلماء ضحوا كثيرا
في قول الحق ما تقدم العلم والمدنية الى الحد الذي نراه ”بغاليليو“
الفلكي الايطالي (١٥٦٤ - ١٦٤٣ م) اخترع التلسكوب فرأى به
أن المجرة ليست إلا نجوما كثيرة ، وأن في القمر جبلا وأودية كالتى
فى الأرض ، ورأى به كلف الشمس ، وكان يُعلم أن الأرض تدور
حول الشمس مخالفا لتعاليم ”بطليموس“ القائلة بأن الأرض هى
مركز الكون ، فاضطهده من أجل ذلك بعض القسيسين ، وأمروه
بالكف عن تعاليمه ، فلم يستطع الصبر عن الحق ، فأخذ وسُجن
وعُذّب كثيرا من أجل تعاليم يعرفها كل تلاميذ المدارس اليوم .

”ودَارُون“ الفيلسوف الانجليزى (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) لم
يُعذّب كما عُذّب مَنْ قبله بسجن أو قتل ، ولكنه عُذّب
بالانتقاد المتر من رجال عصره فتحمله ، وأبان الطريقة التى اتبعها
النبات والحيوان فى نشوئه وارتقائه ، ولم يقعد به ضعف صحته عن

البحث وراء الحقيقة ، فكان على الرغم من مرضه وألمه يُجرى التجارب ويجهد أن يتعلم دائما أشياء جديدة عن الدنيا التي يعيش فيها ، ”وَكَا مَبَانِلًا“ الفيلسوف الإيطالي — (١٥٦٨ — ١٦٣٩م) قد أغضب بعض القسيسين والأمراء بتعاليمه الجديدة ، فقد كان يقول : إننا نستطيع أن نتعلم من امتحان الأشياء التي حولنا كالأشجار والأزهار والجبال والأنهار أكثر مما نتعلمه من كتب الفلاسفة القدماء أمثال ”أرسطو“ وكان يقول : إن هناك نظاما للحكم خيرا من النظام الحاضر لا يستبد فيه الحكام بالشعب ، وقد سجن من أجل أقواله هذه ، وعذب عذابا شديدا ، واستمر في الحبس نحسا وعشرين سنة ، ثم أفرج عنه .

فواجب أن تقف بازاء الحق نصرح به وندافع عنه ونعشقه ،
ونتحمل الآلام في سبيله ، ونتخذ من ذكرنا مثلا صالحا في حياتنا .

ومن هذا النوع من الشجعان من يهجر لذته وراحته ، ويتحمل الآلام ، لخير الناس وإسعادهم ، كمن يرى مرضا اجتماعيا في أمته فيخصص حياته لدراسته ومعرفة أسبابه ، ثم يتحمل المتاعب في سبيل إصلاحه ، وكأن يرى الأطفال الذين لم يتجاوزوا العاشرة يعملون في المعامل ساعات طويلة في أماكن غير صحية بأجر قليل ، لا يرحمهم

ولا يشفق عليهم أصحاب المعامل ورءوس الأموال ، فيشبون ضعفاء
جهلاء يقسون على من دونهم كما قسى عليهم ، أو يرى أولاد الشوارع
ينشئون ولا علم ولا عمل فيكونون بعد مجرمين يعيشون بالأمن
ويعثون في الأرض فسادا ، أو يرى فقراء يألمون في الحياة آلاما
جسيمة يقضون أطول زمن في العمل وينالون أقل أجر ، تشتد
مزاياهم على العمل ، ويخضعون لنظم شاقة ، يسكنون مساكن
غير صحية وهم مع ذلك يستأجرونها بأجرة باهظة اذا قيست بمساكن
الأوساط والأغنياء ، أثمان طعامهم ووقودهم وحاجاتهم أغلى مما يدفعه
الأغنياء لأنهم مضطرون الى شراء كميات قليلة في أوقات يقل فيها
الصنف ، تكثر بينهم الأمراض والوفيات ، ويشتد بهم الضيق
بمجرد قعودهم عن العمل لأنهم لم يستطيعوا أن يوفرُوا شيئا من
أجورهم وقت عملهم ، بيوتهم وحاراتهم تشمئز منها النفس قذارة ،
اضطربهم الفقر الى الازدحام في الحجرة الواحدة مع ما يفشو فيهم
من الأمراض ، تنشأ بينهم أبنائهم وبناتهم فيجدون حولهم
جوا خائفا من سكر وعريضة وتسول ومسكنة وكذب جرّ اليها الفقر
وسوء الحال ، فيخضعون لذلك مضطرين ، ويسIRON سير آباءهم وهم
في ذلك مجبرون لا مخيرون ، فمن رأى شيئا من ذلك أو نحوه من
الأمراض فخصص حياته لمعالجته ، وضحى بكثير من مصلحته

لمصلحة أمته ، وصبر على ما يناله من الشدائد ، وتغلب على ما يصادفه من العقبات ، كان أشجع من جندي في خط النار .

علاج الجبن — الشجاعة والجبن ونحوهما من الفضائل والذائل تعتمد على الوراثة والتربية معا ، فنحن نرث من آبائنا بذور شجاعتهم أو جبنهم ، ولكن يجب ألا ننسى أن للتربية أثرا كبيرا ، فهي اذا كانت صالحة زادت الشجاع شجاعة ، وقلات من جبن الجبان ، واذا عوج الجبان علاجا ناجما فقد يبرأ من مرضه ، وليس للجبن علاج واحد ، بل ينبغي أن ينظر الى سببه ، ثم يتخذ له العلاج اللائق به ، شأن جميع الأدوية ، فقد يكون سببه الجهل بالشئ ، فالعلاج اذا العلم به ، كالذى يرى شبحا فى الظلام فيترع منه وترعد فرائصه ، فاذا علم أنه حجر أو متاع أيسر به وزال خوفه ، ومن هذا النوع أكثر ما يخيف فى الظلام من عفاريت ونحوها .

ويتصل بهذا عدم الإلف ، فكثيرا ما يكون سبب الجبن ، فالإنسان اذا لم يأنس بالشئ ويألفه يجبن أمامه ، كالطالب الذى لم يتعود الخطابة فاذا هو حاولها تهتج صوته ، وجف ريقه ، وارتعشت أطرافه ، ومن لم يتعود غشيان المجالس ومخالطة الناس

يخاف منهم ويلجئه الجبن الى حب العزلة ، فإن هو اضطر يوما الى الاجتماع بهم علاه النجل ، واضطربت حركاته ، وزاد ارتباكهم ، وثقل على الناس وثقلوا عليه ، وعلاج هذا الإلْف والتعود ، فلا يزال الرجل يتكلف الخطابة حتى يصير خطيبا ، والجرأة حتى يصير جريئا .

ومما يفيد في هذا الباب أن يفرض وقوع النتائج التي تكون إن وقع المكروه ثم يهونها على نفسه ، فلو تصور أنه خطب فلم يُجِد وانتقده السامعون ثم صغر هذه النتيجة وهونها تشجع ولم يجبن ، ولو قرّر الأطباء أن تعمل له عملية جراحية فقدر الموت واستصغره قابل العملية بثبات وهكذا .

ومن العلاج أن ينظر الى نتائج كل من الجبن والشجاعة فإذا ظهر له أن ما يصل اليه من الخير اذا هو تشجع أكبر مما يصل اليه من الجبن استحثه ذلك على الشجاعة ، فمن جبن عن أن يرحل عن بلده اطلب رزق أو علم فليُنظرَ أن من المحتمل أن يصيبه مرض في رحلته أو يموت في غربته ، ولكن من المؤكد أنه ان لم يرحل ضاق رزقه ، أو قل علمه وكان جباناً حتماً ، فان ذلك النظر قد يحمله على

أن يكون شجاعاً ، لا سيما إن علم أن ليست الحياة أن ينبض قلبه ،
و يأكل في اليوم ثلاثاً ، إنما الحياة أن يعمل وينفع ، ويستفيد
ويفيد .

- تذكر وقت جبنك سِيرَ الأبطال ، وأكثر من مطالعة تاريخ
حياتهم تستشعر الشجاعة ، وتمتلئ حماسة ، وتحس بقوة تدفعك
إلى العمل على مشاكلهم ، والسير في طريقهم .

العفة

الاعتدال — ضبط النفس

ضبط النفس — أو العفة بأوسع معانيها — هو اعتدال الميل إلى اللذائذ، وخضوعه لحكم العقل، وليس ذلك مقصوراً على اللذائذ الجسمية بل يشمل أيضاً اللذات النفسية، كالانفعالات والعواطف، فلا يسمى الشخص «ضابطاً لنفسه» إلا إذا اعتدل في لذاته الجسمية من مأكل ونحوه، واعتدل أيضاً في انفعالاته فلم يغضب لأيّ داع، ولم يندفع في السير وراء عواطفه، كأن يحنّ حنيناً شديداً إلى وطنه إذا تزع عنه، أو يفرط في حزن لفقد عزيز عليه، وكثير من الرذائل يرجع سببه إلى عدم القدرة على ضبط النفس كالشراهة والدعارة والطمع والإسراف والغضب والسخط والثرثرة والإدمان.

تتضمن هذه الفضيلة أن يكون الإنسان سيد نفسه لا عبداً لشهوات تسيره كما تشاء.

والناس إزاء الملذات أصناف، فمنهم من ذهب إلى الزهد وقمع الشهوات، وقالوا: "إن شهوات النفس خير متناهية، فإذا أعطاها

المراد من شهوات وقتها تعدتها الى شهوات قد استحدثتها ، فيصير الإنسان أسير شهوات لا تنقضي ، وعبد هوى لا ينتهى ، ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ، ولم يوجد فيه فضل — هؤلاء يرون أن أرق أنواع الحياة الأخلاقية محاربة الشهوات ، فلا يتزوجون — مثلاً — ولا يأكلون اللحم ، ولا يمتكنون النفس من ما كل أنيق ، أو مقعد وثير ، أو ملبس جميل ، وقد شنع «سينيكا»^(١) على من يشرب الماء مثاجاً في أيام الحر ، وقال : « قد انتزع الترف من القلوب ما كان بها من موارد الشفقة وأسباب العطف حتى صارت أشدّ برداً وقسوة من الثلج والجليد » . وبالغ بعض الزهاد فلم يكتف بقمع الشهوات بل تعداها الى تعذيب النفس بالقيام في الشمس في أشدّ ساعات الحر ، والتمترغ على الرخام في الشتاء ، وهكذا ، وهذا مذهب أكثر المعتنقين له من الناقمين على الحياة ، المتشائمين من كل شيء في الوجود ، المصابين بفقر الدم ، الذين ضعفت شهواتهم لضعف جسمهم ، وقد يرى هذا الرأي أيضاً من قويت صحته وكل جسمه ، واشتدت شهواته ، ولكن كانت ارادته أشدّ وسلطانه على نفسه أقوى ، وأقوى ما يكون ذلك اذا أتى من ناحية العقيدة الدينية .

(١) سينيكا Seneca كاتب وأخلاقى وسيامى روماني عاش من سنة ٣ ق م الى سنة ٦٥ م ب م

والزاهدون أنواع : فمنهم من يرفض أن ينعم في الحياة بالما كل الشهى ونحوه لأنه يرى أن الاستمرار في طلب اللذائذ يسبب ألماً ، فتصبح النفس شريهة ، أطاعها كثيرة ، وآمالها واسعة ، وكلما نالت منها الكثير طمعت فيما هو أكثر منه ، ثم هي تتألم الآلام الشديدة لما حرمت ، وتتجزع مع ماتئال غصصها من الآلام ، أضف الى ذلك أن كثرة التمتع باللذة يفقدها قيمتها ، فمن يأكل كل يوم طعاما شهيا يصبح بعد مدة وهذا النوع من الأكل عنده عادي ، حتى تكون مقدار لذته منه تعادل لذة من قنع بالقليل ، يرى هؤلاء أن شعور الإنسان بأنه قادر على حرمان نفسه يرفعه فوق حوادث الزمان ، ويجعله يرى أن لا قدرة للحوادث ولا للدهر على إخضاعه ، وهذا الشعور يحترق الإنسان من ربة الخوف — وهو شعور فيه من اللذة ما ليس في الملذات الجسمية — فهم في الحقيقة يفترقون من لذة اللذة أخرى أكبر منها ، هي لذة الراحة والطمأنينة وعلو النفس .

هؤلاء نظروهم شخصياً أكثر منه اجتماعياً ، فهم يبتغون لذة أنفسهم ، غاية الأمر أنهم وجدوها في الراحة وعدم الانغماس في الشهوات .

ومن الزاهدين نوع آخر أرقى من هؤلاء ، زهدوا في اللذائذ لأن ذلك وسيلة الى إسعاد الناس وراحتهم ، كما فعل عمر بن

الخطاب، لم يشأ أن يتمتع نفسه بالملذات لأنه رأى أنه إن فعل ذلك توسع الولاية ومن بيدهم أمر الأمة في البذخ والنعيم حتى يرهقوا الرعية، فزهد ليسعد الناس، ومن هذا الصنف كثير من المصلحين والعلماء الباحثين، يهجعون راحتهم ليستكشفوا ما يوفر الراحة على الناس، وهؤلاء — أيضا — في الحقيقة لم يضحوا بلذتهم، بل هم من صنف راقٍ، يجدون — في شعورهم بأنهم مصدر لإسعاد الناس — لذة قلما تعادلها لذة .

ومن الزهاد صنف يترهد تدينا، يتقربون إلى الله بالامتناع عن التمتع بملذات الحياة — وهؤلاء نقول : إن الله تعالى شرع الشرائع لإسعاد الناس، وقد رضى عن اتباعها لأنه عمل لإسعادهم، فمن هجر لذته هو في عمل صالح يرضى الله — وبعبارة أخرى يسعد الناس — كان عمله مقبولا، وكان من الصنف الثاني، ولكن من ظن أن الله يرضى عن الزهد لأنه زهدٌ فقد أخطأ، لأنه تعالى لم يجعل تعذيب النفوس سبيلا لرضاه، وماذا ينال الله والناس ممن انقطع للعبادة وزهد في الحياة ! مَدَحَ رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يقوم الليل ويصوم النهار وينقطع للعبادة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فمن يقوم بشأنه » ؟ قالوا : كلنا قال : « كلكم خير منه » — وحقا ليس يصح لأحد أن يستحل

أن يأكل من عمل الناس ولا يعمل هو في الحياة للناس شيئاً ،
إنما يرضى الله عن هجر لذته لِيُسعد قومه ، وليس من العقل تحمل
الآلم لأنه ألم .

ومن الناس من يرى — على عكس هؤلاء الزهاد — أن
يطلق لنفسه العنان ، ويمكنها من كل ملذات الحياة ، يرون أن
الإنسان في هذه الحياة إنما خلق ليتنعم ، ولم يمنح العقل إلا لِيبحث
له عن وسائل النعيم ، فهو لذلك يحب اللذائذ عبا ، وينهمك فيها
ما استطاع — وهذا ضار بالفرد وبالمجموع معا ، فلو أبجنا لكل
فرد أن يتلذذ كما يشاء ما انتظم شأن مجتمع ، ولتعارضت شهوات
الأفراد ، وكانت الفوضى المطلقة ، وإن جمعية أفرادها ليسوا أعفاء —
أعني أنه لا تحكمهم إلا شهواتهم الجسمية — لتحمل معها بذور
الانحلال والانحطاط .

وفضيلة العفة نتطلب من الإنسان القصد في اللذائذ ، فإن
هو أفرط فانهمك في شهواته ، أو فرط فأماتها ، وبالع في الزهد ،
فقد حاد عن سواء السبيل ، خير طريق في الحياة أن ينيل الإنسان
نفسه ملذاتها الطيبة ، ويعطيها مشتياتها ما لم تخرج عن حدود
الأخلاق ، فذلك أدعى إلى نشاطها وأقرب إلى طبيعتها ، إنما

يجب ألا نتجاوز الحدود المشروعة ، ففي داخلها من الملذات ما هو أضمن لسعادة الفرد والمجموع ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وكثيرا ما يكون من المصلحة أن يمنع الإنسان نفسه مما لا بأس به حذرا مما به بأس ، كالذي حكى عن بعضهم أنه أشعل لفافة فأحس منها بلذة شديدة فكان ذلك حاملا له على ألا يدخن ، وسبب ذلك — على ما يظهر — أنه تخوف من نمو الرغبة عنده في التدخين ، وخشى شدة تسيطر العادة عليه فيما بعد ، وكان إحساسه اللذة علامة هذا الخطر فتركه .

وأشير هنا الى مبدأ الأستاذ «جيمس» القائل : بأنه يجب أن نحافظ على قوة المقاومة ، ونتبرع بعمل صغير كل يوم ، لا لسبب إلا مخالفة النفس والهوى ، فان ذلك يعيننا على مقاومة المصائب اذا حان حينها .

فليس يقتضى ضبط النفس القضاء على الرغبات والشهوات ، وإنما يقتضى تهذيبها واعتدالها ، وجعلها خاضعة لحكم العقل ، ففي القضاء على الشهوات قضاء على الشخص وعلى النوع ، وفي اعتدالها سعادتهما جميعا .

أهم أنواع ضبط النفس :

(١) ضبط النفس عن الغضب ، فمذموم أن يكون الانسان سريع الغضب يخرج عن عقله للكلمة الصغيرة والسبب الحقيق ، وليس الغضب بالخطأ دائماً ، فهناك حالات يمدح فيها ، فلو رأيت شاباً يعذب صغيراً لم يحن جناية ، أو ضعيفاً لا يستحق عذاباً ، أو حيواناً لا حول له ولا حيلة ، فحق أن تغضب ، كذلك طبعي أن يغضب الانسان اذا عومل معاملة لا تتفق وشرفه أو نحو ذلك ، فلا بد له من الغضب ليدرا عن نفسه أو غيره الظلم .

ولكن هذه الحالات قليلة اذا قيست بغيرها من حالات الغضب ، فأكثر حالاته رذيلة مذمومة ، ولذلك عد رذيلة ، وعد ضبط النفس عنه فضيلة .

وأكثر ما يدفع الانسان الى الغضب أثرته وحبه الشديد لنفسه ، وكثرة التفكير في حقوقه ، فيتخيل فيما لا يغضب احتقاراً له ونيلاً منه ، وكثيراً ما يستسلم لغضبه فلا يعي ما يقول ، ولا يعقل ما يفعل ، ويظن أنه بذلك يظهر بمظهر المحترم لنفسه ، المحافظ على كرامتها ، وهو إنما يظهر بمظهر الطائش الأحمق .

والإنسان في غضبه حاكم غير منصف، يبالغ في الشيء ويستوثقه، فهو كواضع على عينيه منظارا يكبر ويشوه، وهو لا يرى وقت غضبه إلا الأغلاط، ولذلك تراه يحكم حتى على أعز الناس عليه أحكاما قاسية، والواجب أن تترى ونسائل أنفسنا هل نحن محقون في غضبنا؟ أو ليس لما عمل أو قيل مجمل حسن؟ هل الشيء يغضب حقيقة بالقدر الذي أرى؟ أو ليس لمن أغضبني حسنات كثيرة بجانب هذه الاساءة؟

واجب ألا نستسلم للغضب، وأن نسلم زمام انفعالاتنا لعقلنا .
 (٢) ضبط النفس عن الاسترسال في الانقباض والسخط،
 لأن ذلك يكدر صفو الحياة، وفي الناس كثير من هؤلاء المتشائمين الساخطين الذين يرون أن لا أسوأ من هذا العالم، وأن لذائذه لا تكاد تذكر بجانب آلامه، وحامل لواء هذا المذهب في العصور الحديثة «شوبنهور» الفيلسوف الألماني (١٧٨٨ و ١٨٦٠م) —
 كان يرى أن حياة الإنسان ساسلة آلام وتزاع وكفاح، وأن هذا العالم أسوأ ما يكون، فيه من الآلام والشروء أكثر مما فيه من اللذائذ .

وأغلب ما يكون هذا النظر عند من ضعفت صحتهم، أو ساءت أعصابهم، أو توالى عليهم المصائب من موت أو فقر أو نحوهما،

فتظلم الدنيا في أعينهم، ولا يرون فيها إلا ما يؤلم، أحب الشعر اليهم أمثال شعر أبي العلاء، وخير نغمات الموسيقى عندهم ما يبعث على البكاء.

ويظهر أن هؤلاء قد قصرت مشاعرهم عن إدراك ما في العالم من ملذات، فمثلهم كمثل عُثَى الألوان، الذين يدركون بعضها دون بعض، والحق أن الدنيا مملوءة بالمسرات والمؤلمات جميعاً "ولولا سوء النظم الاجتماعية الحالية وفساد التربية الموجودة لكانت السعادة حظ أكثر الناس ان لم أقل كلهم".

ان الناس يخططون في اعتقادهم أن ما يحيط بالإنسان من الأمور الخارجية هي التي تجعله ساهطاً أو راضياً، بأثماً أو منجماً — نعم ان الإنسان قد يكون أقدر على السعادة في بعض الظروف دون بعض، ولكن الظروف نفسها لا تجعله سعيداً، فكثيراً ما تتوافر وسائل السعادة عند قوم وهم مع ذلك أشقياء بأنفسهم، لأنهم يخلقون من كل شيء ما يستوجب السخط، ويلتقون كل ما يرون باللون الأسود.

ان السعادة أو المسرة تعتمد على أنفسنا أكثر مما تعتمد على الظروف الخارجية، ويجب أن يتعلم الإنسان "فن المعيشة" وكيف يكون راضياً ولو لم يكن كل شيء حوله وفق ما يمتنى.

(٣) ضبط النفس عن الاسترسال في الشهوات الجسمية ولا سيما الخمر والنساء ، فهما شرّ ما يقع فيه الإنسان ، ويفسد عليه حياته ، ويضعف من روحانيته ، ويقلل من حرّيته ، ويسوقه الى أسوأ حياة ، وطريق الاحتياط لذلك عدم التعرّض للمغريات ، فلا يجالس المستهترين الذين لا يتحرجون من قول المهجر والحض عليه ، ولا يقرأ الروايات المشيرة ، ولا يغشى أماكن اللهو غير المؤدّب ، يصحب من قويت شخصيتهم ونظف لسانهم ، وطهر روحهم ، وأوجب ما يكون ذلك في السنّ بين الخامسة عشر والخامسة والعشرين ، ففيها تنمو الشهوات وتبعث على الشرور ، فلو لم يُخصَّص الشاب بوسط صالح ورفقة مؤدّبة ، ويُعَنّ بما يوضع في يده من كتب ، وما يشاهد من تمثيل ، وما يغشى من مجتمعات كان عرضة لأحط أنواع الشرور ، في هذه السنّ يكون المرء عرضة للتحوّل ، وأكثر من ساءت حالهم وفسدت أخلاقهم كان فسادهم في هذا الدور ، وقل أن يسقط أحد بعد أن ينجو منه .

(٤) . ضبط الفكر فلا يتركه يهيم في كل واد ، ويتحوّل في كل مجال ، فالفكر إذا حام حول الشرور يوشك أن يقع فيها .

وعلى الجملة فضايط نفسه كراكب الفرس الذَّلُول ، يقصد
 حيث أراد ، فيوجهها كما يشاء — ومن لم يضبط نفسه كراكب
 الصعبة ، لا يُسَيِّرُها كما يهوى ، ولا يصل الى غرضه بالسير
 كما تهوى .

في ضبط النفس حفظ الصحة ، وطمانينة العقل ، والسعادة ،
 والحرية ، وسلطان كسلطان القائد على جنده ، أو الربان الماهر
 على سفينته .

العدل

العدل نوعان — نوع يوصف به الفرد فيقال إنسان عادل، ونوع يوصف به المجتمع أو الحكومة، ولتتكام على كل قسم.

فالعدل في الأفراد إعطاء كل ذي حق حقه، ذلك أن كل إنسان لما كان عضوا من أعضاء الجمعية كان له الحق في التمتع بنصيب من الخير الذي ينال المجتمع، فأخذ الإنسان نصيبه لا أكثر، وإعطاؤه الناس حقوقهم لا أقل، هو العدل، فالغصب والسرقة ظلم لأن في كليهما أخذ ما للغير ومنعه عن حقه، والبائع الذي يكيل للمشتري أو يزن أقل مما اتفقا عليه ظالم لأنه لم يعطه حقه وهكذا.

ومن أعدى أعداء العدل «التحيز» وهو ميل الإنسان لأحد المتساويين ميلا يجعله يعطيه أكثر من حقه، وينقص الآخر حقه، فالقاضي مثلا يجب ألا يفرق في سيره مع الخصوم بين غني وفقير، وأسود وأبيض، وذو جاه وعديم الجاه، لأن عمله إنما هو أن يطبق القانون على الأفراد، والناس أمام القانون سواء، فيجب ألا يجعل مجالا لحبه أو كرهه، ولا لغنى الخصم أو فقره، ونحو ذلك.

وكثيرا ما يتحيز الانسان لآخر ويخطئ في أحكامه لتحيزه ،
وهو مع ذلك غير شاعر بأنه متحيز، ومعتقد^ك الإنصاف فيما يرى ،
ومن أجل هذا يجب على الانسان شدة مراقبته نفسه ، وحذره
من الوقوع في الخطأ .

ويحمل على التحيز أمور :

(١) الحب ، فمن يحب إنسانا يتحيز له ، كالوالدين قلوبا
يريان الخطأ في عمل أولادهما .

(٢) المنفعة الشخصية ، فاحساس المرء بأن أحد الجانبين
يكسبه منفعة لا تكون في الجانب الآخر يجعله يتحيز لأحد الجانبين .

(٣) المظهر الخارجي ، فحسن منظر شخص ، وجمال هندامه ،
وفصاحة قوله ، وآدابه في الحديث كثيرا ما تبعث على التحيز وتبعد
عن العدل .

وواجب يقظة الانسان في حكمه واجتهاده ألا يتغلب عليه
هوى أو ميل يصدّه عن العدل .

وقد كان قدماء الرومانيين يمثلون إلهة العدل بامرأة معصوبة
العينين ، ممسكة ميزانا ذا كفتين باحدى يديها ، وسيفا باليد الأخرى ،
ويرمزون بعصب عينيها الى أن العادل ينبغي أن يعمى عن

الاعتبارات التي تجعله يتحيز من غير حق كغنى وجاه، وبالميزان الى أنه يجب أن يزن لكل انسان حقه بالقسط، وبالسيف الى أنه يجب أن يلجأ الى القوة في تحقيق العدل عند الحاجة اليها، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ .

ويحمل على العدل :

(١) عدم التحيز ، فالذى ينظر الى الشيء مجردا عن الهوى أقرب الى تحقيق العدل .

(٢) توسيع النظر ورؤية المسألة من وجوهها المتعددة ، فعند الخلاف في أمر يجب على كل من المتنازعين أن ينظر الى محل النزاع من الجهة التي ينظر اليها خصمه أيضا ، والقاضى عند فصله فى الخصومة يجب أن ينظر الى وجهة كل خصم .

(٣) أن يجعل مدار الحكم على الباعث للعامل على عمله لا على مظهره الخارجى ، فقد يكون ظاهر العمل سيئا ، ومستفزا للغضب ، ولكنه صادر عن باعث شريف ونية حسنة ، كالذى يقسو على ولده ليربيه .

والمجتمع العادل هو المجتمع الذي له من النظم والقوانين ما يسهل لكل فرد من أفراده أن يرقى نفسه على قدر استعداداته ، فلا يكون المجتمع عادلا حتى تتوفر لكل طائفة من الناس وسائل رقيهم ، ففي الأمة مثلا طائفة من التجار يحتاجون في تجارتهم الى تلغراف و بريد وسكك حديدية وهكذا ، وطائفة من الناشئين يحتاجون الى مدارس يتعلم فيها كل من أراد أن يتعلم ، وفيها من النظم والعلوم ما يستد حاجة كل طالب ، وطائفة من المتخصصين يحتاجون الى قضاة وقوانين تردع الجناة وتحفظ حقوق الناس وهكذا ، فاذا قامت الأمة بكل هذا حق لها أن تسمى مجتمعا عادلا ، وإلا فهي مجتمع ظالم .

والمطالب بتحقيق العدل في المجتمع كل فرد من أفراده ، فكل إنسان مطالب أن يعمل لتحقيق العدل في مجتمعه على قدر استطاعته ، فاذا احتاجت مدينة الى مستشفيات مثلا فعلى الخطيب أن يخطب حاثا على إنشاءها ، وعلى كتّاب الجرائد أن يكتبوا ، وعلى الشعراء أن يشعروا ، وعلى الأغنياء أن يتبرعوا ، وعلى كل ذي قدرة ونجاه أن يستعمل قدرته وجاهه في مساعدة المشروع ، ثم على من في يدهم تنفيذه أن ينفذوا ، فاذا لم يعمل كل فرد ما عليه فالأمة كلها آثمة ظالمة ، يقع عليها ضرر تقصيرها ، حتى الأفراد الذين أدوا

ما عليهم ، لأن المجتمع كما قدّمنا جسم عضوى ، وذلك هو شأن الجسم العضوى ، فلو أن القاب أدى ما عليه ولكن المعدة لم تؤده عوقب كل عضو فى الجسم حتى القلب .

وإذ كانت حكومة كل مجتمع هى القائمة بالأمر فيه فهى لا تعدّ عادلة إلا اذا قامت بواجبها خير قيام ، وليس واجبها أن تحصل الخير لنفسها ، ولكن أن تحصل للمجتمع الذى تحكمه أقصى ما تستطيع أن تحصله ، وقد صبر أفلاطون عن هذا بقوله : "إن خير حكومة هى التى تضع كل فرد من الأمة فى خير مكان يليق به ، ويستطيع أن تظهر فيه مواهبه ، ثم تُمّده بما يحتاجه لأداء ما عهد إليه" وعلى هذا لا تكون الحكومة عادلة إلا اذا قامت بهذه الوظيفة ، وهو تكليف للحكومة شاق ، من المشكوك فيه أن يتحقق يوما ، مهما صغر المجتمع ورقيت حكومته .

وأقل من هذا تكليفا ما قاله بعضهم من أن الحكومة تُعدّ عادلة ما دامت لا تضع العراقيل فى سبيل أفرادها ، وتركهم أحراراً يعملون ما يشاءون لترقية قواهم وملكاتهم وأعمالهم ، حسب استعدادهم ، إلا عند الضرورة القصوى ، أما اذا كان بعض أفراد الشعب يريد مثلاً أن يتعلم فيجد السبيل قد سُدّت أمامه ، أو التاجر

لا يستطيع أن يرقى تجارته للعقبات التي تضعها الحكومة في سبيله ،
فاذ ذلك لا يمكن أن توصف حكومة هذا الشعب بالعدل .

العدل والمساواة — كثيرا ما يقرن العدل بالمساواة ،
ويعتقد كثير من الناس أن العدل في المساواة ، والظلم في عدمها ،
وقد أخذت هذه الكلمة محلا كبيرا في العقول من عهد الثورة
الفرنسية ، فقد كان شعارها « الحرية ، المساواة ، الإخاء » ، « كل
الناس أحرار ، كل الناس متساوون ، كل الناس إخوان » .

في الدنيا وسائل كثيرة من وسائل الحياة الطيبة كالثروة التي
لا بد منها لأكل الطيب والملبس الطيب والمسكن الصالح واقتناء
الكتب النافعة ، والقدرة على الرياضة البدنية والعقلية ، ونحو ذلك ،
وهذه الثروة لا تكفى لسد مطالب كل الناس ، فهل من الحق
والعدل أن يتساوى الناس في هذه الوسائل الموجودة أو الحق
والعدل في عدم المساواة ؟ هل من العدل أن توزع الثروة من
أراض ومناجم ومتاع على الناس بالسواء فلا يكون غنى وفقير ولا
أرباب أموال وعمال ؟

تعالى قوم في ذلك ، فطلبوا المساواة في وسائل الحياة كالمال
ونحوه ، وذكروا لذلك حججا لا يتسع هذا الكتاب لذكرها .

والحق أن المساواة التامة لا تمكن لأسباب، أهمها :

(١) أن الناس مختلفون بطبيعتهم في قواهم وملكاتهم ، فمنهم الذكي والغني ، والحاذاق والأبله ، والكفء وغير الكفء ، هكذا خلقهم الله ، وهكذا ولدوا ، فمن انخرق أن نمكن الأغنياء والأبله وغير الأكفاء من إدارة الأعمال الواسعة ، وأن نمسحهم منحا كبيرة لا يستطيعون أن يتمتعوا بها ، فانا اذا منحناهم ذلك أساءوا استعمالها ، ولم يتفعوا بثمرتها ، مع أننا لو أعطيناهم ضروريات العيش فحسب ، وأعطينا ما زاد للكفء القادر سعد الجميع .

(٢) أن الاختلاف بين الناس يبعثهم على الجهد ، فالفقير اذا رأى الغنى يتمتع بأكثر مما يتمتع به هو جهد في العمل ليكون مثله ، وحامل الشهادة الثانوية اذا رأى حامل الشهادة العالية يمتاز بميزات أكثر منه رغب وعمل ليكون مثله ، وتمتع بعض الناس بالملبس الجميل والمسكن العظيم والسيارات الفخمة يشير في النفس حب العمل لتصل الى النتيجة المنشودة ، ويبعث على الاختراع ويرغب المتراحمين في استكشاف خير الطرق لنجاح عملهم ، وفي ذلك خير للانسانية على العموم ، أما إن نحن سويننا بين الناس لم نجد ما يحملهم على الجهد ، وقد فطر الناس — متوحشهم ومتمدنينهم — على

أن الأمل يُسَيِّرهم ، والرغبة في عيش خير من عيشتهم هي التي تشجعهم .

ومع أن دعاة المساواة لم يصلوا الى غرضهم فقد كان لهم أثر كبير في تحسين حالة العمال ، وترقية طبقة الفقراء ، بزيادة أجورهم ، وتقليل ساعات عملهم ، وإنشاء المساكن الصحية لهم ، ونحو ذلك .

فألحق أن المساواة المطلقة في كل شيء لا تمكن ، وليست من العدل ، خصوصا بعد ظهور أن الناس مختلفون بالطبيعة — إنما هناك أشياء تعقل فيها المساواة وهي عدل وعدمها ظلم ، من ذلك :

(١) المساواة أمام القانون ، بمعنى أنه لا فرق أمامه بين غني وفقير ، وشريف وغير شريف ، كل يعاقب على جريمته اذا أجرم ، وعند وضع القانون ينبغي ألا تفضل طبقة على طبقة .

(٢) المساواة في الحقوق ، فكل إنسان له من حق الحرية وحق الحياة ونحو ذلك ما للآخر ، ليس لأحد الحق في أن ينحطب أو ينشر رأيه دون الآخر ، بل الكل في ذلك سواء ، للأمر من الحق ما لأحد الرعية ، وللغنى ما للفقير .

(٣) المساواة في المناصب ، أعني أنه ليست المناصب مقصورة على فئة خاصة ، بل كل من تتوافر فيه الصلاحية للنصب له الحق فيه ، وليس للاعتبارات الأخرى كالغنى والجاه دخل في التفضيل .

(٤) المساواة في التصويت في الانتخاب ، فليس ذلك حق الأغنياء دون الفقراء ، وهذا النوع موضع خلاف بين العلماء ، ولم تتبع الأمم نمطا واحدا في السير عليه .

العدل والرحمة — كثيرا ما يقول الناس : « الرحمة فوق العدل » يعنون بذلك أن العمل حسب ما تقتضيه الرحمة أفضل من العمل حسب ما يقتضيه العدل — وهذا ليس بصحيح على عمومته ، بل قد يكون صوابا وقد يكون خطأ ، ونحن نذكر أمثلة مما تستعمل فيه هذه الجملة :

(١) موظف ليس كفئا ، لا يحسن عمله ، ولا يفيد الناس ، أريد الاستغناء عنه من أجل ذلك لكنه كبير في السن ، ورب أسرة وفقر ، فيقال : « الرحمة فوق العدل » أي أن العدل يقضى بالاستغناء عنه ، والرحمة تقضى ببقائه في عمله ، ولكن يجب أن نطبق في هذه المسألة العدل لا الرحمة ، فالعدل هنا فوق الرحمة ، وليست الرحمة فوق العدل ، ذلك لأن الضرر الذي ينال الناس من إهماله في عمله ،

وعجزه عن القيام به يفوق الضرر الذي ينال الموظف وأسرته ،
ولأن «المصلحة» التي يشتغل فيها ليست ملجأ للإحسان يرتزق منها
مع عدم كفايته ، بل هو يأخذ أجره في مقابل عمله ، فمن لم يحسن
عمله لم يستحق أجره ، وكونه رب أسرة وفقيراً يجعله يستحق
الإحسان لا من «المصلحة» ولكن من معاهد الإحسان .

(٢) عامل ترام « كمسارى » تريد أن تشفق عليه فتعطيه
ثمن التذكرة ولا تأخذها منه « لأن الرحمة فوق العدل » وهذا
أيضاً خطأ ، لأن ثمن التذكرة ليس مالكك ، ولكن ملك الشركة
ولا يصح أن تحسن من مال غيرك إلا برضاه ، فإذا أردت الإحسان
فأعطه من مالك الخاص بعد أن تدفع ثمن التذكرة .

(٣) لص قبض عليه وهو ينتشل « محفظة » فأخذ يستعطف
الناس ويكي ليفرج عنه فيقولون : « الرحمة فوق العدل » وليس
ذلك بصحيح ، لأن معاقبة السارق من حق الأمة ، فلا يملك العفو
عنه بعض الأفراد .

(٤) مسجون سجن ظلماً وعدواناً يراد العفو عنه ، فيقال :
« الرحمة فوق العدل » وهو خطأ أيضاً لأن العدل يقتضى كذلك
ألا يسجن ، فالرحمة والعدل يتفقان في المطلب ، وليست الرحمة
فوق العدل .

نعم في بعض المواضع يكون استعمال الجملة صحيحة، كما إذا كان لك دين على آخر فرحمته وترك دينك، أو أجلته حتى يوسر، فالعدل أن تأخذه والرحمة أن تتركه أو تؤجله، والرحمة فوق العدل .

وجملة القول أن الجملة صحيحة إذا كان الذي يرحم هو الذي يملك حق العدل، ثم هو يتنازل عن حقه في العدل ويرحم، أما الرحمة حيث يكون العدل من حق غيره نخطأ بين كما مثلنا .

[العدل والإحسان — كذلك كثيرا ما يقرن العدل بالإحسان، ونعني بالعدل أداء الواجب من غير تحيز، وبالإحسان الفضل في أداء الواجب والزيادة عليه، ولنضرب لذلك مثالا يتجلى فيه معنى الإحسان .

هب أن اثنين اشتركا في عمل، وكان أحدهما قويا والآخر ضعيفا، فموقف القوى مع الضعيف لا يعدو أحوالا ثلاثة :

(الأول) أن يستغل القوى مركزه، ويقول: إنني أقوى منه، فلا أنتهز فرصة ضعفه وأكلفه عمله وجزءا من عملي، فاذا لم يعمل أجبرته واتخذت ما أستطيع من الوسائل لإرغامه، وهذا موقف يمثل المبدأ المشهور « الحق للقوة » وهو مبدأ سار عليه الناس في حالة بداوتهم وهمجيتهم. ولا يزال يطبق بين المتمدنين وإن كان أقل من قبل، وهذا هو « الظلم » بعينه .

(الثاني) أن يقول القويّ : إن عليّ نصيباً من العمل ، وعلى زميلي نصيباً ، ولست أستغلّ قوتي فأحمل زميلي فوق نصيبه ، ولا أطبق مبدأ «الحق للقوة» ولكن أعمل واجبي لا أكثر ولا أقل ، وليعمل هو نصيبه لا أكثر ولا أقل .

وهذا الموقف هو العدل ، يتساوى فيه العاملان بأن يعمل كلّ واجبه .

(الثالث) أن يقول القويّ : إني أستطيع بحكم قوتي أن أرغم زميلي على أن يعمل أكثر من نصيبه ، وأستطيع أن أعدل معه فأكلفه نصيبه فقط ، ولكن سأعمل فوق ذلك ، سأعمل نصيبي وأعينه على نصيبه ، سأساعده في نصيبه لأنه أضعف ، ولأني لو كنت مكانه لتمنيت أن يعينني زميلي ، فلا عامله بما أحب أن أعامل به . لو كنت مكانه ، ولو كنت أنا الضعيف لتمنيت أن القويّ يحمل عني بعض العبء ، فلا تحمل الآن بعض عبئه جرياً مع القاعدة الذهبية «أحب لأخيك ما تحب لنفسك» .

هذا هو «الإحسان» وهو موقف أشرف من العدل ، وأعلى

منه شأنًا [.

الاعتماد على النفس

من أهم الفضائل الاعتماد على النفس ، ويمكن الإنسان أن يعودها من صغره ، فلو أن الوالدين أفهما أطفالهما وجوب عنايتهم بأنفسهم في نظافة ملابسهم وانتظامها وأنهم هم المسؤولون عن ذلك كان هذا بذرة للاعتماد على النفس .

ويستطيع الوالدان أن ينميا هذه الفضيلة بالإصغاء الى ما يبدية الطفل من الأسئلة والإجابة عليها ، وإظهارهما احترام آرائه ومناقشتها ، وإبداء ما فيها من ضعف ، في لطف ، مهما كانت الأسئلة والآراء سخيفة .

إذا سلك الوالدان هذا المسلك شعر الطفل بأن له شخصية محترمة ، فمما عنده حبّ السؤال ، وحب تكوين الآراء ، ولم يصبح ببغاء يردّد فقط ما يسمع ويرى — وزاد عنده الشعور كذلك باحترام ما لغيره من شخصية ، فهو يعامل أصدقاءه وزملاءه بالطريقة التي يعامله بها أبواه ، فيصنئ الآراء المخالفة لرأيه ، وينقدها في أدب ، فيزيد ذلك في نمو شخصيته واستقلاله .

كذلك مما يمين على نمو هذه الفضيلة أن يجعل الوالدان لأولادهم «مالية خاصة» يستولون عليها، ويتصرفون فيها بحريتهم، ثم يصحح الوالدان ما ارتكب الأطفال من أخطاء فيها، وهذا هو الطريق الوحيد لتدريبهم على تحمل المسؤولية، وشعورهم بالشخصية، فبيع الأطفال وشراؤهم، ونجاحهم أحيانا وغبنتهم أحيانا، يجنبهم الخطأ في المستقبل، وأكبر برهان على ما نقول ما نرى من شبان حرّموا المال في صغرهم ثم أعطوه دفعة واحدة في شبابه فأساءوا التصرف، ووقعوا في أضرار جسيمة، لأنهم لم يُدربوا للتدريب الكافي منذ نشأتهم.

فإذا ذهب الطفل الى المدرسة، وعوده المعلمون الاستقلال بنفسه في بعض أعماله، كحل بعض المسائل الحسابية، والكشف في المعاجم عن الكلمات التي لم يفهمها، وتركوه ونفسه يفكر في المضكلات، ويتفهم بعض الجمل الصعبة التي تعترضه نمت عنده هذه الفضيلة.

إن من اعتاد ألا يتحمل شيئا من العبء بل ترك غيره يحمل عنه عبأه لا يستطيع بعد السير في الحياة، فالتلميذ الذي ينتظر جاره حتى يحل المسائل ثم ينقلها منه، أو ينتظر المدرس دائما حتى يشرح

له ما غمض عليه لا يمكن أن يأتى يوم يكون فيه متعلما حقا ،
فالشجرة التى تُسندها دائما على حائط لا تحمل نفسها ، إنما الشجرة
التي نمت بنفسها ، واعتمدت على ذاتها هي التي تقاوم العواصف ،
وتكون أصلح للبقاء .

والاعتماد على النفس وسيلة من وسائل الاقتصاد ، فالأم التي
تعتمد في كثير من شؤون بيتها على نفسها تقتصد كثيرا ، والرجل
الذي عود نفسه أن يصلح الأشياء الصغيرة في بيته يوفر كثيرا ، وهكذا .

كذلك هو الوسيلة الوحيدة للتعلم ، فالطفل لا يستطيع أن يتعلم
المشى إلا إذا اعتمد على نفسه وسقط ثم قام ، ولا يستطيع أحد
أن يتعلم السباحة بقراءة كتاب فيها ، إنما يتعلم ذلك باعتماده على
نفسه وفشله مرة ونجاحه أخرى ، وإنما نتعلم القراءة والكتابة
بمحاولتنا ، فإذا اقتصرنا على أن نسمع غيرنا يقرأ ، ونظرنا غيرنا
يكتب ، فمحال أن نقرأ أو نكتب ، وهكذا الشأن في كل علم .

وليس يمكن أن يدوم الزمن الذي يحمل عنا عبأنا فيه آباءنا ،
بل لا بد من يوم نحمل فيه عبأنا وعبء غيرنا ، فكان حتما أن نتسلح
من صغرنا بالاعتماد على النفس حتى إذا جاء ذلك اليوم كنا على
استعداد لمواجهة سيأتى اليوم الذي نُكاف فيه أن نحصل المال

نتفق منه على أنفسنا ومن نعولهم ، فلا بد أن نُمَرّن من صغرنا على العمل الذي نعدّ أنفسنا له من تجارة أو منصب أو حرفة ، وهب أننا أغنياء ولسنا في حاجة الى منّصب أو عمل فليس من الحق أن نعيش حالة على العاملين ، بل الحياة نفسها عبء ثقيل اذا لم تُلطف بالعمل .

وطريقة إعدادنا لذلك أن نتسلح بالعلم وبالخلاق ، فكل تجارة وكل منصب وكل حرفة لا يفلح صاحبها إلا اذا علم ما يتصل بها وتخاق بما يلزمها .

كيف نربي فضيلة الاعتماد على النفس

من خير الوسائل لذلك أن يعود المعلمون الطلبة أن يواجهوا العقبات بأنفسهم ، وأن يطلبوا منهم بذل الجهد في حلها ، ولا يلقوا اليهم بالمعلومات إلا بعد أن يُعْمِل الطلبة أذهانهم فيها ، وكلما أجهد الطالب نفسه في الاستفادة كان أقرب الى النجاح ، فليس أعلم الناس من كان لديه أحسن مكتبة ، لأن هذه المكتبة لا تفيده إلا بقدر ما يهضم منها — وهذا هو السبب في أن أبناء الفقراء وأوساط الناس — عادة — أقرب الى النجاح من أبناء الأغنياء ، لأن الأولين تدعوهم قلة المال الى بذل الجهد ، ومحاسبتهم أنفسهم على

ما ينفقه عليهم آباؤهم ، ويعملون لأنفسهم حيث يرتكن أولاد الأغنياء في كثير من شؤونهم على غيرهم .

إن الصعوبات التي يلقاها الإنسان في حياته هي التي تصقل ملكاته ، والانهماك في الترف والنعيم يورث الخمول ، وليس يُجَلَى الذهب إلا في البوتقة ، اعتبر في ذلك بالنبات ، فإن النبات الذي تربي في حديقة المنزل وبين جدرانها ، ولم يعتد العطش ، ولم يقابل العواصف ، يكون نباتا رقيق الحال لا يعيش اذا تعرض للبحر الخارجى ، وعلى العكس من ذلك ما نبت في الصحراء بين الشمس القاسية ، والريح العاتية ، كذلك الناشئ اذا نشأ في مهد النعيم وعُود أن يرى كل شيء حسب ما يطلب لا يستطيع أن يكون رجلا يواجه الحياة .

يجب أن نتعود الاستقلال في رأى فلا تقتصر على أن نكر ما نسمع ، ونعنى بالاستقلال في رأى أن نكون فكرا من أنفسنا ، ندرس الشيء ثم نعتقد ما يؤدينا اليه بحثنا ولو خالفنا في ذلك غيرنا ، وقد كان ذلك دائما عمل المصلحين وبكار الرجال ، يفكرون بعقولهم لا بعقول غيرهم ، ولا يتبعون رأى غيرهم إلا اذا قام البرهان على صحته ، ثم اذا رأوا حقا قالوا به مهما كانت نتائج قول الحق .

للاعتدال على النفس لئلا يشعر بها الإنسان وإن قلّت نتائج ما يصدر عنه ، فكلنا يسرّ من ربح قليل أتي ببذل الجهد ، ولا يرضى عن كثير قدّم إليه إحسانا ، والرجل يسرّ بيته وإن قلّ متاعه ، لأنه نتيجة مجهوده العزيز عليه .

النضال في الحياة هو الذي يكون المرء ، والعقبات التي يصادفها في طريقه فيبذل الجهد في تخطيها هي التي تربي نفسه ، وتعدّه لأن يكون عظيما ، والإنسان قد يتعلم من فشله أكثر مما يتعلم من نجاحه ، فلا خوف من بذل الجهد أن يعقبه فشل ما دام يفتح عينيه ويدرس التجارب التي عاها ، ويتجنب الأخطاء في مستقبل حياته ، فقائد الجيش يتعلم كثيرا من الوقائع التي هزم فيها ، والسياسي يتعلم كثيرا من مواقف فشله ، والعالم في دراسته يستفيد كثيرا مما ارتكب من أخطاء ، والمحيط الماهر ما كان كذلك إلا بعد أن خطب مرارا وسخر الناس منه ، وكذلك الكاتب والشاعر والفنان .

فإن أردت النجاح فاعتمد على نفسك في تعلمك وفي تجارتك وفي منصبك ، وتعلم مما أخطأت ، فإن هذا هو السبيل الوحيد للنجاح .

الطاعة

رأينا فيما سبق أن الإنسان عضو في جمعيات كثيرة : عضو في جمعية الأسرة ، وعضو في جمعية المدرسة ، وعضو في جمعية الأمة ، وهكذا .

لكل جمعية من هذه الجمعيات قوانين لا بد أن نتبع والا لا يمكن بقاؤها ، ففي الأسرة — مثلا — يجب على الوالدين أن يطعموا أولادهم ويربوهم ، وعلى الأولاد أن يتبعوا أوامر والديهم ، والا لما بقيت الأسرة ، فلو أن كل طفل في الأسرة فعل كما يهوى ، ولم يخضع لأى أمر ، ولم يُعَنِّ الوالدان أية عناية بأطفالهما ، لصارت معيشة الأسرة مستحيلة — ولو أن كل تلميذ في مدرسة سار كما يشتهى ، حضر أو لم يحضر ، وإذا حضر فعل ما يشاء ، ولم يفعل ما يشاء ، وفعل كذلك المعلمون في المدرسة ، لم تعش المدرسة أياما ، ولو أن كل جندي في الجيش اعتبر نفسه مساويا للقائد ، وعمل برأيه فسار يمينا إذا أمره القائد أن يسير شمالا ، لم يكن هذا جيشا صالحا ، وكان نصيبه الفشل لا محالة .

من هذا يتضح أن لكل جمعية من بيت ومدرسة وجيش قوانين لا يمكن أن تبقى هذه الجمعيات بدونها ، وأن صلاحها بطاعة قوانينها .

والعصيان في كل مجتمع يجزأ الى الفوضى ، لأن معنى العصيان انعدام القانون ، وإقامة الفرد شهوته وهواه مقام القانون ، ومعنى هذا أنه يريد أن يتخذ الناس ارادته وهواه قانونا بدل القانون الأخلاقي ، وإرادة الفرد لا يمكن أن تقهر القانون الأخلاقي كما لا يمكن أن تقهر القانون الطبيعي ، فلو اجتمع الناس أن يغيروا طبيعة الماء وقوانين الجذب ما أمكنهم ، كذلك لا يمكنهم أن يغيروا طبائع المجتمعات وتغيير ما يصلحها وما يفسدها ، نغير وسيلة لصلاحها الجرى حسب القوانين التي تبقيا وترقيها .

بعض هذه القوانين الأخلاقية التي لا بد منها للمجتمع وضعت في القوانين الوضعية كتحریم السرقة والقتل ، وبعض القوانين كترك الحسد والكذب ترك للأفراد وضمائرهم ، وكلها قوانين أخلاقية يجب إطاعتها ، فإن إطاعتها مجلبة للخير والسعادة ، ومعصيتها مجلبة الشر والشقاء .

قد يشعر الانسان أن في إطاعة الأمر ذلة ، وأن في العصيان حرية ، وهذا خطأ في التفكير ، فإن في الطاعة الحرية ، وفي العصيان

ضياعها ، قد يتخيل الطالب أن المعلم إنما يأمره حبا في الأمر ،
ورغبة في إظهار السلطة ، وليس كذلك ، فإن الأمر العاقل إنما
يأمر مراعى المصلحة العامة ، وهو مثلك خاضع لها ، وكل الفرق
أنه بحكم مركزه وتجاربته تعود أن ينظر الى الخير بأحسن مما تنظر ،
فالحق أن الأمر والمأمور كلاهما يطيع ، يجب ألا يأمر الأمر
إلا بما فيه خير المأمورين ، أفرادا ومجتمعين ، فالمأمور لا يطيع
لأجل الطاعة نفسها ، ولا الأمر يأمر لذة في الأمر ، وإنما يأمر
ونطيع ليصل كل منا الى سعادته وفلاحه .

وهناك مواقف يجب ألا نطيع فيها ، سيما إذا أمرنا من صديق
بسرقه شيء ، أو غش في امتحان ، أو تزوير في ورق ، أو انتخاب
من لا يصلح ، هنالك يكون العصيان فضيلة لأن في إطاعة هذه
الأوامر وأمثالها خروجنا على الأخلاق ومخالفة للضمير ، ونحن
ملتزمون باتباع قوانين الأخلاق وسماع صوت الضمير ، وإنما أمرنا
بالطاعة للوالدين والمعلمين وأمثالهم لأن ثقتنا بهم جعلتنا نعتقد أنهم
أوسع منا نظرا ، وأصح رأيا ، فهم إذا أمرونا فإنما يأمرون بما
يتفق والأخلاق ، وإذا نهوا فإنما ينهون عن المنكر والإثم ، وهم —
بحكم صلتهم ومركزهم — لا يودّون لنا إلا الخير .

والحق أن الطاعة هي الفضيلة البارزة التي تميز بين المتدينين والمتوحشين ، في الأمة الممدنة يطيع الطفل أوامر أبويه علما منه بأن لا سعادة للأسرة إلا بالطاعة ، والأطفال يتعلمون الطاعة في البيت فيطيعون في المدرسة ، لأنهم يشعرون أن الحياة المدرسية لا تكون سعيدة إلا بالطاعة ، ولا قيمة للمدرسة إلا بالطاعة ، وإذا نخرج من المدرسة الى الحياة العامة فهو مطيع لقوانين البلاد ، مطيع لقوانين الجمعيات التي ينتسب اليها — وعلى العكس من ذلك الأمة التي لم تأخذ بحظ وافر من المدنية ، ففي كل مجتمع عصيان ، في البيت ، وفي المدرسة ، وفي محال اللهو ، وفي سماع المحاضرات ، وفي الشارع ، ومظهر هذا العصيان عدم النظام ، فإن النظام إنما يكون بمراعاة القوانين الموضوعة والقوانين المتعارفة ، والسير على وفقها من غير انتظار رقيب ، ولا محاسبة إلا محاسبة الضمير .

وخير الطاعة ما صدرت عن قلب لا خوفا من عقوبة أو رغبة

في مثوبة .

الانتفاع بالزمن

[الزمن كالمال، كلاهما يجب الاقتصاد فيه وتديره، وإن كان المال يمكن جمعه وادخاره لوقت الحاجة بخلاف الزمن .
قيمة كل من الزمن والمال في جودة إنفاقه وحسن استعماله ،
فالبخيل الذي لا ينفق من ماله إلا فيما يستد رمقه فقير، كمن كانت أمواله مزيفة، كذلك من لم ينفق زمنه فيما يزيد في سعادته وسعادة الناس فعمره مزيف .

إنا نعيش في زمن محدود، ليل ونهار يتعاقبان بانتظام، ليس يطغى أحدهما على الآخر، وحياة مقسمة تقسيما محدودا ، صبا وشباب فكهولة فشيخوخة ، ولكل قسم عمل خاص لا يليق أن يعمل في غيره، كالزراع اذا فات أوانه لم يصح أن يزرع في غيره، وحياة محدودة، فاذا جاء الأجل فلا مفتر من الموت .

وما فات من الزمن لا يعود ، فالصبا اذا فات فات أبدا، والشباب اذا مرّ مرّ أبدا، والزمن المفقود لا يعود أبدا .

واذا كان محدودا وكان لا يمكن أن يمتد فيه أو يقصر، وكانت قيمته في حسن إنفاقه، وجب أن نحافظ عليه ونستعمله أحسن استعمال .

وليس للانتفاع بالزمن والمحافظة عليه إلا طريق واحد، هو أن يكون لك غرض في الحياة ترضى عنه الأخلاق فتنظم زمنك للوصول إليه .

ولما يضيع الزمن بأمرين : الأول ألا يكون للانسان غرض يسمى اليه ، قال عمر بن الخطاب : "إني لأكره أن أرى أحداً سَهْلًا ، لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة" — فما أضيع زمن قارئ يقرأ ما يقع في يده من الكتب من غير أن يكون له غرض معين ، كبحث موضوع خاص أو دراسة مسألة خاصة — وما أتعب من يمشى في الطريق لا لغرض ، يسير من شارع لشارع و يتنقل من حانوت لآخر لا لغرض معين — وتحديد الغرض يوفر من الزمن الشيء الكثير ، ويسير الانسان في الحياة على هدى ، كلما صادفته أمور عرف كيف ينتخب منها ما يغذى غرضه ، ويتجنب ما لا يتفق معه ، إن الذين لا يحددون أغراضهم ويتركون الزمن يمر عليهم كما يمر على الجمار قلما يصدر عنهم خير كبير أو يأتون بعمل عظيم — والانسان بلا غرض كالسفينة في البحر بلا مقصد .

ويلاحظ أن أكثر الناس عملاً أوسعهم زمناً ، ذلك لأنهم محدودو الغرض ، فهم يوجهون أعمالهم لنيله ، ولا يصرفون زمنهم في التردد والاختيار ، ولا يكونون كرة في يد الظروف تلعب بهم كما

تشاء، بل هم الذين يخلقون الظروف ويتصرفون فيها حسب أغراضهم في الحياة .

الثانى مما يضيع الزمن أن يكون للانسان غرض محدود ولكنه لا يخلص لغرضه ، فلا يبحث للوصول اليه ، ولا يعمل ما يتفق معه .
عدم الغرض وعدم الاخلاص له هما اللذان يسرقان الزمن ويضيعان فائدته .

ومن نتائج هذين العدوين التأجيل ، وعدم الدقة في مراعاة الوقت المحدود للعمل ، وعدم المواظبة — فتأخر دقائق عن البدء المحدد معناه ضياع دقائق من وقت العمل ، وذلك يؤدى الى إحدى نتيجتين : إما الاسراع فى العمل وعدم الدقة فيه ليعوض الزمن الفائت ، وإما التعدى على أوقات خصصت لواجبات أخرى — ومن هذا النحو تأجيل العمل الى وقت غير وقته ، فالعمل المؤجل قلما يُعمل ، وإذا عُمِلَ فقلما يعمل بإتقان كما اذا كان فى وقته .

وليس يتطلب الانتفاع بالزمن أن نعمل باستمرار، وألا نترك وقتا للراحة ، وإنما يتطلب أن نستعمل أوقات الراحة والفراغ استعمالا يجعلنا أقدر على العمل ، فاذا صرفنا وقت الفراغ فى كسل ونحول لم ننتفع به ولم يفدنا فى العمل ، واذا نحن صرفناه فى لعب مفيد

أو في رياضة بدنية أفادنا ذلك في عملنا ، وأنالنا من القوة ما نستطيع أن نخدم بها غرضنا ، وكان هذا تدبيراً واقتصاداً .

الزمن هو المادة الخام للإنسان ، كالخشب الخام في يد النجار والحديد الخام في يد الحداد ، فكل يستطيع أن يصوغ منه حياة طيبة بجده ، وحياة سيئة بإهماله — ولأجل أن نجعل حياتنا قيمة يجب أن نقضى أوقاتنا فيما يتفق وأغراضنا .

ومما يعين على الانتفاع بالزمن أن نعرف — بعد تحديد الغرض — هاتين المسألتين :

(١) كيف نبتدئ العمل .

(٢) وكيف نستمر فيه حتى ننتهي منه .

لعل من أشق الأشياء معرفة الإنسان كيف يبتدئ عمله ، وكثير من الزمن يذهب سدى في التفكير في ذلك — ترى الطالب يريد مذاكرة دروسه فيفكر بـم يبدأ ، فيرى أن يبدأ بالعلوم الرياضية مثلاً ، ويشرع في ذلك ثم يستصعبها فيشرع في غيرها وهكذا ، فهو يصرف زمناً طويلاً قبل أن يبدأ بجده — أضف إلى ذلك أن بدء الشيء صعب عادة لعدم المِرَّان ، أولاً لأنه انتقال من راحة لذيدة إلى عمل يشق عليه .

وعلاج الأمر الأول — وهو بم يبدأ — أن يفكر — قبل العمل — في أولى الأشياء بالبدء، ويدرس وجوه الترجيح ثم يرتب ما يليه وهكذا، ثم يعزم عزما قويا لا يشوبه تردد، ولا يسمح لنفسه بتغيير ما عزم عليه مهما صادفه من الصعوبات، أما من يرى أن البدء صعب عليه ويرى نفسه منصرفا عن العمل فمما يفيد في ذلك أن يقرأ فصلا من كتاب يشجعه على العمل، أو قطعة من الشعر تثير ميله إلى الجهد وتعيد إليه نشاطه، أو يستحضر في ذهنه نتائج الكسل والجهد، أو يتذكر أشخاصا جدوا فنبغوا في الحياة .

فاذا بدأ فقد قطع شوطا بعيدا للنجاح، بعد ذلك يجب أن يستمر، وإنما يستمر بالعزم القوى الثابت، ويشجعه على ذلك أن يكون العمل الذي يختاره في الحياة عملا يتفق ونفسه، أعني أن يكون عنده استعداد له وميل إليه، يشعر منه بفائدة ولذة — فأكثر أسباب الملل، يرجع إلى سوء اختيار العمل .

أوقات الفراغ — إن استعمال أوقات الفراغ استعمالا حسنا من أهم مسائل الحياة التي يجب العناية بها والتفكير فيها، فإن أكثر أعمارنا تذهب سدى لأننا لا نعرف كيف نستعمل أوقات الفراغ، يقضيها الأطفال في الحارات والشوارع بلا فائدة، ويقضيها الشبان والشيوخ على "القهوات" حيث لا هواء نقي ولا منظرا حسنا

ولا رياضة بدنية ولا فكرية — أوقات طويلة تذهب في كلام لا قيمة له، أو لعب لا يفيد، ولا يقصد منه إلا "قتل الوقت" — وأثر ذلك في أوقات العمل كبير، فمن لم يعرف كيف يلهو لم يعرف كيف يجتهد .

لعل من أهم الأسباب لذلك قلة الأندية للرياضة البدنية في الأحياء المختلفة، ففي أكثر الأحياء لا تجد مكانا يرتاض فيه إلا الشارع "والقهوة" — يجب أن تكون أندية اللعب والحدائق والمكاتب في كل حي من الأحياء .

أضف الى ذلك أن جهل الأمة وعدم تربيتها تربية صحيحة يفسد ذوقها، وهذا هو السبب في أنك تجد "القهوة" والروضة والمكتبة والملعب في حي واحد ثم تجد "القهوة" وحدها هي العامرة بالزائرين .

وسبب ثالث وهو أن فقدان السعادة المنزلية في بيوتنا جعلنا نفر من البيوت — التي كان يجب أن تكون أعز شيء عندنا — الى الأندية العامة نمضي فيها أنفس أوقاتنا. وسبب فقدان السعادة المنزلية يرجع في الأغلب الى انتشار الفقر وجهل الزوجين — وعدم معرفتهما "فن الحياة" .

التعاون

التعاون نوعان : تعاون بين أفراد الأمة الواحدة ، وتعاون بين الأمم

التعاون. بين أفراد الأمة الواحدة

الإنسان مدين بحياته ووجوده للمجتمع ، فلولا اجتماع أبويه وتعاونهما ما وجد ولا تربى ، وليس يستطيع بعد أن ينقطع عن العالم ويتجرد من كل ما كسبه منه ، فهو حتى لو عاش في جزيرة وحده ، إنما يستعمل — فى تحصيل رزقه وصيد الحيوانات التى حوله — الآلات التى علمه إياها المجتمع ، بل هو لو لم يتخذ معه آلات ولا كساء فأنما يجمع ما يقاته وينسج ما يلبسه بمعلومات هو مدين بها لمجتمعه ، فالتعاون بين الأفراد لا بد منه للحياة ، وكلما تقدم الناس فى الحضارة كانت حاجتهم الى التعاون أشد ، ويظهر ذلك جليا اذا قارنت بين سكان القرى وسكان المدن ، فالفلاح يزرع ، وهو يطحن ويخبز ، ولا يستعين على ذلك الا بأهل بيته ، وقد ينسج ملابسه بنفسه من صوف غنمه ، ويربى أولاده فى حقله ، وعلى الجملة فمطالب الحياة لديه بسيطة قليلة ، يقوم فى أكثرها بنفسه وأهله ، أما ساكن المدن فمحتاج الى مخبز يبعده الخبز ، ولبان

يحضر له اللبن، وفي ملبسه يحتاج الى مراكب تستورد له ملبسه من الخارج، وخياط يخطها له، ومدارس تُربي أولاده، وترام أو سيارات ينتقل عليها، وجرائد يقرأها، ونحو ذلك من المطالب التي يستغنى القروى عن كثير منها .

وكثرة الحاجات والمطالب، وشدة الحاجة الى التعاون، ألحّت الناس الى توزيع الأعمال، وتخصيص كل طائفة لعمل، وتعاون كل طائفة من العمال مع الأخرى .

أنظر— مثلاً — الى الكتاب الذى تقرأه، فقد اشترك فيه ألوف من العمال قبل أن يصل الى يدك، وتعاون عليه طوائف من الصناع كل طائفة تخصصت لعمل، فطوائف لصنع الورق قد تخصصت كل جماعة لنوع من صناعته، هؤلاء لعجينته، وهؤلاء لصقله وهكذا، والمؤلف الذى ألف الكتاب قد اشترك فى إعدادة للتأليف جماعة كثيرون، ربوه وأعانوه وعلموه حتى استطاع أن يؤلف، وإذا نظرت الى المطابع التي طبعت الكتاب اتسع مجال النظر، فكم من الصناع اشتركوا فى صنع آلات الطباعة! وصنع الحبر، وصنع الحروف! وكم من العمال صقوا الحروف ثم طبعوها! وهكذا، ولولا هذا التعاون بين طوائف العمال ما وصل الكتاب الى يدك .

وتوزيع العمل على الناس، وتخصيص كل طائفة بعمل ساعد على الاتقان، كالذى ترى فى لاعبي الكرة، فلو أنك رتبت اللاعبين، وكلفت كل لاعب عملا خاصا، انتظم اللعب، وكان أوفى بالغرض، وعلى العكس من ذلك إذا أنت سمحت لكل لاعب أن يأتي بكل أعمال اللعب من غير تحديد .

كذلك كان هذا التوزيع من وسائل توفير الزمن وتوفير المال، فالقمح لو اشتغل أفراد فى حصاده، وآخرون فى طحنه، وطائفة ثالثة فى خبزه، أخذ زمنا أقل فى إعداده، وكان أرخص مما إذا اشتغلت طائفة واحدة بالحصاد والطحن والخبز معا .

لعلك نظرت الى آلة من الآلات الكبيرة كآلة الطباعة، أو آلة رفع المياه، أو توليد الكهرباء، وكيف رأيت أن كل آلة مركبة من أجزاء مختلفة، كل جزء له عمل خاص، فعجلات ومكابس ونحوها تتحرك حركات مختلفة، وكل جزء يتحرك حركة مناسبة للآخر، ومؤدية لتحصيل الغرض من الآلة، كذلك الناس والحياة، هم آلة كبيرة، كل يؤدى عملا جزئيا، وكل يتعاون مع الجزء الآخر فى عمله، ولو قعد جزء هام من العمال عن العمل لوقف سير العمل جميعه، كما إذا وقف جزء هام من آلة الطباعة، وكل جماعة من

الناس صالحون لنوع من العمل قد لا يصلحون لغيره ، فالواجب أن يعملوا ما صلحوا له وأن يؤدوا عملهم على أحسن وجه ، ولما بأن بقية أجزاء الأمة يشوقف عملها على عملهم ، وانت لم تر ذلك عيونهم .

كثيرا ماتقرأ أو تسمع أن بعض المؤلفين وعظماء الرجال ماتوا غرقا من إهمال ربان سفينة ، أو سقط عليهم البيت من إهمال مهندس ، أو نحو ذلك ، كل هذا يدلنا على أن كل إنسان في أمة يتعدى عمله غيره من الناس ، وقد يصل أثر ذلك الى حياتهم ، وهذا يجعلنا نشعر بالمسئولية الملقاة على عاتقنا ، ويوجب علينا أن نُخرج العمل الذي عهد الينا كأحسن ما نستطيع ، كما يوجب علينا ألا نحتقر من يعمل غير عملنا ، كل يؤدى واجبا ، وكل لا بد من عمله لسير الأمة ، فالمؤلف إنما يستطيع أن يتفرغ للتأليف لأن غيره من الناس يشتغل له في إعداد مأكله ومشربه وملبسه ، وأنت إنما تتعلم وتتفرغ لتحصيل علمك لأن غيرك قد كفالك مؤونة السعى لتحصيل العيش ، وهكذا الناس ، كلٌ خادمٌ وكلٌ مخدومٌ ، وخير الناس أنفعهم للناس .

ولا يصح أن يسمح بالتعاون بين الأفراد أو الشركات اذا كان في ذلك ضرر بالأمة ، كما يحدث في الاحتكار ، فلواتحدت شركات

المياه والنور على رفع السعر حتى أرهقوا الشعب كان هذا ضرباً من التعاون بين هذه الشركات ، ولكنه تعاون ضار لا ترضى عنه الأخلاق ، إنما ترضى الأخلاق عن أنواع من التعاون تزيد في رقي الأمة ، كالتعاون على حماية العمال من أرباب رءوس الأموال ، وجمعيات التأليف ، ونوادي الفنون والألعاب الرياضية ، وجمعيات البر والاحسان ، وجمعيات التعليم ، فإن التعاون بين هذه الجمعيات والنقابات يزيد في سعادة الأمة ويعين على نهوضها .

التعاون بين الأمم

هناك نوع آخر من التعاون هو التعاون بين الأمم ، وذلك على ضروب شتى .

من ذلك التعاون التجاري ، فخيرات هذه الأرض قد وزعت على العالم ، فالبن والقطن والأرز والفاكهة والفضة والذهب والحديد ونحوها ليست مجموعة في بقعة واحدة ، وإنما يكثر في أمة بعض الأشياء ويقل البعض الآخر وهكذا ، فتحتاج الأمم الى التعاون وتبادل ما بينهم من الخيرات ، ولو أن كل أمة قصرت حياتها على ما عندها من خيرات لا تنمت في بعض الأنواع ، وأحست

بالجذب والفقر في البعض الآخر، ولم تستطع — على العموم — أن تعيش عيشة سعيدة ، فهذا التبادل لتعاون الأمم على السعادة ، ولذلك كان من السخافة أن تعتمد أمة الى إفناء أمة أخرى اذ يكون مثلها مثل تاجر يعمد الى إحراق منزل عميله .

كذلك تعاون الأمم في نشر الحضارة، ولعل أوضح مثل لذلك اليابان، فقد رأت حاجتها الى اقتباس المدنية الغربية فأرسلت البعثات الى الممالك المختلفة لتدرس نظمها ، وكانت النتيجة أن نظمت بحريتها على نمط البحرية الانجليزية ، وجيشها على النمط الألماني واقتبست آلاتها من النمط الأمريكي أحيانا والانجليزى أحيانا وهكذا .

وكذلك تعاون الأمم في الاختراع والاستكشاف فالانجليز أمدوا العالم بالآلات البخارية، وأمريكا وصات الى درجة عظيمة في استعمال الكهرباء، وعنهما أخذ العالم، والكيميائيون الألمان اخترعوا كثيرا من عجائب الكيمياء ، والفرنسيون استكشفوا كثيرا من ميكروبات الأمراض ، ونجحوا في وصف علاجها ، ولما اتجهت الأذهان لترقية الطيران تسابقت الامم المختلفة ، كلٌ يدخل عليه نوعا من التحسين ، وكلٌ يريد الفوز والغلبة ، وكلٌ يستفيد مما يدخله الآخر من الإصلاح .

كذلك الشأن في العلوم والآداب والفنون ، يظهر فيلسوف كبير في أمة فتنتفع الأمم الأخرى بعلمه ، وتظهر رواية جميلة أو قطعة موسيقية ممتعة فتُمثَّل أو تُوقَّع في الممالك الأخرى ، حتى يكاد يكون العالم أو الأديب أو الفنان عالميا ، نتاجه للأمم كلها لا لأُمته .

وتبادل الآراء نوع من التعاون ، فالأمة ترسل بعثاتها الى الأمة الأخرى تدرس آراءها وتستفيد منها ، كالذي ترى في المؤتمرات ، تُعقد لمختلف الموضوعات ، كالمؤتمر التربوية ، ومؤتمر التاريخ ، ومؤتمر الجغرافيا ، ونحو ذلك ، يجتمعون من عدة أمم فيتبادلون الأفكار ، ويستفيد كل مما وصل اليه بحث الآخرين .

وتتعاون الأمم على ما يصيب احداها من الكوارث ، فزلزال مسينا ، وثوران البراكين ، ونحو ذلك يُحل بالأمم أعظم المصائب ، فتتعاون الأمم على درء الشر ، وإغاثة المنكوبين ، بما يتبرعون به من مال ورجال .

ومن مظاهر هذا التعاون ما كان بين الحكومات ، فالمعاهدات بين الأمم في تبادل البريد والتلغرافات ونحو ذلك أثر من آثاره ، وكذلك تعاقد حكومات الأمم المختلفة على منع تجارة الرقيق ، ومحاولتهم الآن التعاون على نقص التسليح ، والعمل على منع الحرب ، وإحلال عصابة الأمم محل تحكيم السلاح ، وان كان ذلك مما لا يزال أملا يُرتجى .

خلاصة

وبعد، فهذه الفضائل وأمثالها لا يرقى الانسان في اكتسابها
إلا بأمرين :

(الأول) محاسبة النفس وسؤالها من حين الى حين في أية
فضيلة ارتقيت وفي أيها ضعفت، هل أنا اليوم أصدق مني
أمس، وإلى أية درجة نجحت في التزمي الصدق، بهذا الامتحان
ونحوه يستطيع الانسان أن يتتبع نفسه ويراقبها في سيرها .

إذا رأيت نفسك تغضب كل يوم فأجتهد أن يمر يوم لا تغضب
فيه، ثم اجتهد أن يمر يومان فثلاثة، فإذا نجحت في مرور أيام
لم تغضب فيها فتصدق بصدقة شكر الله على تقدمك في النجاح
في كسب هذه الفضيلة، وانتقل الى غيرها وهكذا .

(الثاني) الإرادة القوية المسيطرة على النفس، فالإرادة قابلة
للتمرن، ومثلها مثل من يتدبى في ركوب دراجة (بسكيت) فهو في أول
أمره يختل توازنه، ولا يستطيع أن يسيطر عليها، يعلم ما يريد ولكن
لا يستطيع أن يصرفها كما يريد، وبالتدريج والمرانة تطيعه الدراجة،
وتنتظم حركته، وتصبح تحت سلطته، ويسير في سهولته سيرا آليا .
وهذا هو ما ينبغي في سيطرة الانسان على نفسه، يكون لإرادته
من القوة ما تستطيع به أن توجه النفس الى ما تعتقد من خير وصواب .

*
* *

وكان تمام طبع هذا الكتاب بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الجمعة ٣٠ ربيع الأول

١٣٥٠هـ (١٤ أغسطس سنة ١٩٣١م) م محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

